THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

UAR. 2885. Um 'Isām
Dhakir yā tarā.

ذاكر يا ترى؟
أم عصام

ذاکرُ یاتری

بقلم

اُم عصام

893.7N179
P5

منشورات
دار الثقافة بدمشق

الى روحي ...

روحي القلقة الحيرى ..

التي تظل تبحث بين طيات العواطف .. والمشاعر الزاخرة عن

صدى ما يزيّن الحياة والايام ..

تبحث عن الحب وعبيره ..

عن الحرمان وقسوته ..

عن الوحدة ومرارتها ..

عن الاخلاص .. والتفاني .. والسمو ..

اليك يا روحي أهدي كتابي هذا ..

ام عصام

خديجة الجراح النشواتي

DEC 10 1964

لم تعد عيناه تعطّر لقاءهما ..

لانه عاجز عن اعطائها حبّاً .. خالصاً ..

لأن آراءه سكبت الجمود في أعماقها ..

كانت متعطشة الى كلمة ..

كلمة واحدة تسكبها شفتاه في اذنها .. بصدق !! ..

كانت تتمنّاها قصة شوق ..

قصة ترضي انوثتها ! .

لكن آراءه .. جعلت الابتسام يشحب على وجهها ..

وقد احست بتفاهتها ..

احست بخيبتها .. وبمرارتها ..

تجرعت عبراتها واخفتها وراءعينين اخذتا تعاتب زوايا غرفتهما !

اغلقت نفسها على آلامها وهي تودعه بنظرة اخيرة .

ستنساه ! ..

يجب ان تنساه .. ولكن كيف ؟ ..

عرفته منذ زمن بعيد ..

عرفته شاباً جميلا .. انيقاً .. يترك في نفس اية فتاة حلماً يتراقص عذباً .. ولحناً يتراقص طرباً ..

صادفته في أحد النوادي .. في امسية شتاء باك ..

دخل « عامر » المكان مع صديق له .. وقد ارتدى معطفاً يقيه برد الشتاء وامطاره ، رافعاً ياقة معطفه حتى اعلى الرقبة .

وكان الشتاء شاملا الدنيا بكآبته وامطاره التي تتساقط في الطرقات غزيرة .. فيسمع لها صوت يألفه السمع بعد قليل .. وتستسيغه النفس التعبة القانطة ، التي تجد فيه سيمفونيتها الخالدة .

دخل « عامر » معتزاً بنفسه .. كأن الايام قد أكسبته ثقة بجماله .. ومكانته في القلوب .

وكانت نظرة سريعة ، بينه وبين « سمر » استشعرت فيها خوفاً لا تدري مصدره .

كفّ المطر ..

وغدت الدنيا أكثر راحة بعدما بكت طويلا .. إذ غسلت ببكائها ما ترسب في الاعماق .. من آلام .. وتوبة .. وندم ..

طلبت سمر من اخيها مغادرة المكان ..

لقد ضايقها هواء النادي .. وثقل على صدرها .. واحال انفاسها الى العدم .

وخرجا ..

نفذت لسعات الهواء الباردة الى جسدها .. وارتعشت ..

لقد حالف ارتعاشها بعض الحيرة ..

لم بحثت عنها عينا « عامر » متسائلة عن سبب ذهابها ؟ ..

وعادت « سمر » الى بيتها ، وهي تطوي في حناياها خوفا .. ورعدة .. من شيء مبهم ..

انها وحيدة .. والوحدة قاتلة ..

فبمن تستعين ؟ ..

وعلى اي صدر ترتمي ؟ .. لتلفظ ما يعتمل في باطنها من انفعالات .. وقلق ؟ ! ..

لا ام .. لا اب .. لا اخت .. لا صديقة ..

ولو وجد احدهم فهل تلتجيء اليه ؟ .. وهي التي تعودت منذ صغرها الا تلتجيء الى احد ؟ ..

وهو ؟ ! ..

« عامر » !! من خافت الالتقاء به وهربت ..

إنه رجل ؟ .. غادر ؟ .. قاس ككل الرجال ..

هذه حدود معرفتها بهم ..

* * *

مر الشتاء ثقيلا ..

ثقيلا على وحدتها وقلقها ..

وجاء الصيف ..

حين خرجت « سمر » من عزلتها .. وقد تناست انها كانت انسانة الليل والشتاء والضجر .. وقد بدأ القدر يرفع ستر الظلام عن عينيها ..

اخذ يداعبها اشراق الحياة .. وجمالها .. في مشاعر جديدة بدأت تحيط بها ..

مشاعر .. فيها همس انغام سماوية ، توحي بأن في الحياة جمالا وعذوبة والحانا حلوة تنسكب في الاذن .. وليست كلها نقمة وخداعاً ..

غفت عن حوادثها ووحدتها ..

إذ اصبحت تتوق للمجهول ..

تتوق لرؤية عواطفها تثور لأي شيء ! .. لاية رغبة ! .. لأي حنان ! .. لأي الم ..

ترى ماذا ينتظرها ؟ ..

إنه يوم « اثنين » ..

وقد جاءت صديقتها « سهام » لتصحبها الى احدى الحفلات ..

وذهبت معها ..

ذهبت وهي تطوي شيئاً من التردد في اغوار نفسها ..

وجلست « سمر » في الحفل صامتة .. تحجبها عن الناس نظارتان سوداوان ..

وتحرك القدر مرة ثانية .. ليرمي شباكه حولها .. فجمعها به للمرة الثانية ..

إنه هنا !! .. قريباً منها ! ..

انه « عامر » ذلك الانسان الذي صارت تعتبر رؤيته خطراً عليها ..

واتجهت عينا « عامر » نحو ذلك الوجه الهادىء الذي يحيطه الغموض خلف نظارتين سوداوين . ويبدو ان جعبته كانت فارغة .. فوجدها ..

وجدها متعة جديدة .. لا بأس بها ..

حتماً !! لقد نسي من هي ؟ .. ونسي ذلك اللقاء العابر الذي تذكره هي .. في النادي .. في الشتاء الماضي ..

اعتدل « عامر » في جلسته مصوباً نظرته الى سمر ..

وقد كان لدقائق يشمله الملل ؟ .. حين لا حظته يهز رجليه في حركة منتظمة .. فيها كل معاني السأم والضجر ..

ثم هدأت حركة رجليه عندما وجد ما يسليه ويدفع عنه الملل ..

راحت « سمر » ترقبه وتتأمل أناقته في « بذلة » سوداء ، وربطة عنق مخططة باللون الاحمر والاسود .. وحذاء اسود لامع .. والسيجارة قد عانقتها أصابعه عناق رجل لا يدخن ..

وشملها سرور وخوف ..

سرور لرؤيته وملاحظته خلف نظارتيها .. وخوف منه ان استمر في النظر اليها .

* * *

زحفت أثواب الظلمة تنتشر في المكان ..

وكان عليها ان تقلع نظارتيها والا أصيبت بالسخرية من الجميع .. وخلعتهما ..

حين بانت له عيناها السوداوان الاقسى من الليل .. فيهما رقة .. فيهما اضطراب .. فيهما شيء من التعبير عن اعجاب .. وبدء عاطفة كانت غافية ..

واعتراه الزهو .. لما حاز عندها من الاعجاب والاهتمام ..

تقصد « عامر » الاقتراب من مكانها .. وبدل مكانه .. واقترب.

لقد كانت حركاته وسكناته تدل على انشغاله بها .. بها لوحدها.

لم تفه « سمر » بكلمة .. حتى لصديقتها التي كانت تجاورها .

ليتها لم تات ؟ ..

اما استشعرت شيئاً جديداً في حياتها ، منذ اشراقة الصباح .

لقد دخلت الحفل مطمئنة .. وخرجت منه خاسرة ..

خسرت قلبها الذي اخذ يرف .. كورقة في مهب الريح ..

وعجبت من نفسها ؟ ! ..

ابهذه السهولة قد احبت .. ومنذ النظرة الاولى ..

لقد كانت تعتقد ان قلبها قلعة حصينة .. فاذا باحجارها تنهار امام نظراته الواحد تلو الآخر ..

لقد كانت تهزأ من الحب .. وها هي قد احبت ..

أحبت من النظرة الاولى المصوبة .. ام كان الخطر يرسب في الاعجاب منذ زمن بعيد ..

وعادت « سمر » الى بيتها ...

دلفت حائرة .. ضائعة .. تتساءل عما تخبئه لها الايام مع « عامر » ! ..

ثم تمددت على سريرها .. ماذا اصابها ؟ ! ..

ولمع ضوء امام عينيها .. في الظلمة ..

انه خاتم الزواج في يد « عامر » ! ولمع ذلك الخاتم كثيراً ، واشتد وميضه امام عينيها اللتين حجبتهما اصابع مرتعشة ..

وهتفت :

اينزف الشجن من قلبي .. والكآبة ترعاه .. والصعاب تعترضه؟

وضمّت الوسادة بين يديها تمرغ وجهها فيها .. وهي تحس برغبة شديدة في البكاء .

واخيراً .. داعبها الكرى وهي تحتضن خلف اجفانها طيفاً حبيباً رغم آلامها .. واراحها النوم من عذابها هذا .. حين طافت بها الاحلام طوال الليل مع « عامر » ..

مع عينيه المصوبتين اليها .. فيهما وله .. وفيهما حب ..

* * *

نهضت « سمر » مع صباح اليوم الثاني متعبة ، متداعية . وقد قررت الا تذهب الى الحفل في يومه الثاني .. لئلا ترى « عامراً » .

لقد اصبحت تخاف الالتقاء به‌مرة ثانية .. بعدما لمست ضعفها ..

وقاومت رغبة جامحة في الذهاب .. وصمدت .

وجاء اليوم الثالث ..

تريد ان تراه بأي ثمن .. لن تستطيع الصمود اكثر !! ..

ذهبت « سمر » مع اخيها الذي انتقى ركناً قصياً ..

انه بعيد عن « عامر » .. الذي رأته بين مئات البشر ..

تركت اخاها مدعية انها رأت صديقة لها .. تود تحيتها ..

بحثت عن مكان قريب منه .. وجلست وحيدة .

وقد التفت « عامر » كعادته يبحث عن فتاة تدفع عنه السأم والملل .. ورآها ! ..

كانت نظرته اليها غريبة !!

فيها التجاهل .. وفيها التساؤل ..

تجاهلها لاعتقاده بأنه امضى امسية مسلية معها وكفى ؟ ..

والتساؤل لانه رآها لوحدها ، فما معنى وحدتها؟.. وقريبة منه؟

اما « سمر » فقد تجاهلت معنى التجاهل في نظرته ، ولو انها احست بخيبة مريرة ..

ثم الحت عيناها في النظر اليه ..

عاد « عامر » يبادلها الاهتمام بعد صراع قام بينه وبين نفسه ؟ بين التسلية معها أو تجاهلها ..

ويبدو ان الملل قد عاوده .. وعاد يفكر فيها ..

ربما لانه لم يجد غيرها تبادله النظر ! ..

واسترعى انتباه « سمر » الحظ الذي خلفه خاتم الزواج على اصبعه .. لقد كانت خالية منه ! .

وتساءلت :

هل فكر بي ؟ ..

تقصد « عامر » محادثة جاره كثيراً ، لينظر اليها من جانب عينيه تلك النظرة الجريئة التي اوقعتها في شباك حبه الذي يبدو لها متعباً ، ولو انها لم تعرفه بعد .

ونسيت اخاها ومن حولها ..

لقد عاشت لحظاتها تلك ضمن نطاق دائرة واحدة مركزها هو .. هو وحده ..

وكان معها .. في تلك الدائرة التي ظنت انه حددها لها ايضا ..

ثم وهبها هزة من راسه .. وبسمة من فمه تعبر عن تفاهمهما ..

إذ احست « سمر » بروحها تشد اليه بحبال متينة .

حبال اقوى من تفكيرها واردتها .. تشدها الى حبه . . الى التضحية في سبيله في كل ما يريد ..

اسرع « عامر » يقف امامها حين انتهى الحفل ..

ينتظر انتهاء عزف النشيد الجمهوري .. لئلا تغيب عنه بين تلك الجموع الغفيرة الخارجة ..

وخفق قلبها شديداً ! ..

إنها ضربات قوية سمعتها حتى اذنيها .. ودارت الدنيا بها .. لاتقوى على الوقوف ..

اسندت « سمر » يديها على المقعد تستعين به خوفا من السقوط

وانتهى النشيد ، وسار « عامر » امامها .. وسارت وراءه ..

سارت بخطوات واهية .. كان سلسلة قد قيدت المسافة التي تفصل قدميها عن بعضهما ..

سلسلة قد شبك حلقاتها « عامر » بيديه .

سارت « سمر » .. تنتظر كلمة من فمه .. كلمة يقيدها بها الى الابد .

ـ اين « سهام » ؟ .. لمَ لم تأتِ ؟ ! ..

قالها « عامر » وهو يلقي على « سمر » نظرة فاحصة .

تعثر الجواب في فمها .. يبدو ان اهتمامه كان لسهام في المرة الماضية .. وليس لها ؟ ! ..

اجابته بصوت تقطر الخيبة من مقاطعه :

ـ لا ادري .. انها مشغولة ..

قال :

ـ هل تستطيعين الذهاب معي الآن ؟ ..

وغمغمت اعماقها :

يا للتناقض ! .. ويا للسرعة ! ..

ثم قالت :

ـ لا استطيع .. ان اخي في انتظاري ..

ـ ما هو رقم هاتفك لاتصل بك غداً ..

ـ سأتصل انا بك ..

ـ سأنتظرك الساعة الثانية عشر .. اعملي حسابك الساعة السادسة مساء .. يجب ان اراك .. نزهة في السيارة ..

اجابته بإيماءة موافقة وصمت عميق ..

ثم حياها وغاب .. وابتلعته الجموع الخارجة ..

تريثت « سمر » في الحديقة تنتظر اخاها الذي اتى متسائلا :

ـ اين كنت طوال تلك المدة ؟ ..

ـ مع صديقتي ..

وسارا الى البيت ..

لقد مرت الحوادث بسرعة لم تكن تنتظرها « سمر » .. ثم غفت مع احلامها وافكارها المشوشة .

وضمها النوم والليل ..

النوم الذي طاف بها الدنيا مع « عامر » .. اذ كانت تجد نفسها بين لجج الحيرة واليأس تستنجد .. وتارة على شاطىء حالم تبتسم .. تارة في رياض واسعة هفافة تسير مع « عامر » كالفراشة بين الزهور .. وتارة مرمية على الاعشاب الشائكة .. تنتحب وهي تتحسس دماءً تنزف منها .. تناديه ولا تجده ..

* * *

امتدت اصابع الصباح تداعب اجفان « سمر » وتمسح عنها عذاب ليلها واحلامها .. تدغد عنها بإشراق اخذ يزحف رويدا رويدا الى اعماقها .. ونهضت مع خيوط الشمس المتسللة عبر الستائر المسدولة .

نهضت لاول مرة مع الامل .. والحب .. والقلق ..

وزحفت الساعة الى الثانية عشر ..

لقد اشتد انين قلبها .. وسرت البرودة الى اطرافها .. وشلت الحركة من قدميها ، لتسير الى الهاتف تطلبه حسب الموعد .

تجالدت .. وتماسكت ..

حين لعبت اصابعها بارقامه الحبيبة تحملها لهفتها وحبها ..

واجابها صوت يحاكي نغمة الناي رقةً .. وصدى وادٍ عميق..

غابت « سمر » مع وقع كلماته في أعطافها .. غابت مع تلك العاطفة التي صبها صوتـه في اذنها .. كان الحب بينهما وليـد سنوات ..

ـ هل استطيع رؤيتك الآن ؟ ..

ـ الآن ؟ .. لا استطيع .. في السادسة مساء أفضل ..

ـ إذاً .. انتظر منك مخابرة في السادسة والنصف .

ـ الى اللقاء يا « عامر » ..

ـ الى اللقاء يا ...

انسكب في اذنه صدى ضحكتها .. لانه لا يعرف اسمها بعد !. لا يعرف حتى من هي ؟ ..

وجاء المساء ..

وانتظرت « سمر » موعدها معه ..

كان نصف يوم يمرّ في انتظاره عمر كامل من البعد والفراق ..

تركزت عيناها على الساعة تستحثها على المضيّ الى الوقت المحدّد ..

غرست « سمر » أصابعها تداعب الارقام .. لتنبت قصة غرام.. قصة كتبها لها القدر .. غرستها في الساعة السادسة والنصف تماماً ..

وجاءها الصوت الحالم الذي تغلفه حرارة الانتظار ..

ـ اهلاً وسهلا .. اهلين وسهلين ..

ـ بكم يا « عامر » .

ـ لقد تأخرت .. انتظرتك منذ نصف ساعة ..

ـ لمَ ؟ .. اليس موعدنا في الساعة السادسة والنصف ؟ ..

ـ لقد عذّبني الصبر نصف ساعة .. والآن .. أانت على استعداد ؟! ..

ـ نعم ..

ـ ما رأيك في ان نجتمع في منزلي بدل الذهاب في سيارة لئلا يرانا أحد ؟ ..

ـ كما تريد ..

قالتها « سمر » دون أن تفكر ، لقد فوجئت بطلبه هذا الذي لم تكن تنتظره لتكهنها بوجود زوجته في البيت .. وتكلم «عامر» شارحاً لها أين يقع منزله .. وانه في انتظارها أمامه ..

واحتواها الدرب ..

دربه الذي أصبح اليفاً لها .. لأول مرة ..

لمحته عن بُعد .. بيده ورقة .. وأمامه رجل يتكلم .. وسيارة تقبع في داخلها فتاة ..

لمحها « عامر » تتهادى بخطوات واجفة ..

ودخل الرجل السيارة مودعاً عامراً ، ثم دلفت السيارة في الطريق مارة بجانبها وتساءلت سمر :

ـ أيعلم ذلك المجهول ، والفتاة التي هي الى جانبه انني آتية لزيارة من كان يكلّمه ؟ ..

يا للاقدار !! ..

ماذا فعلت بي ؟ وكيف سيرتني ؟ ..

ازاحت « سمر » افكارها وهواجسها جانباً وسارت ..

وابتلعتها بضع درجات هبطتها لتجد الباب يفتح فتحة صغيرة.. علامة انتظاره لها وراءه ..

ودخلت ..

خطت اولى خطواتها .. في منزله ..

همس :

ـ اهلاً وسهلاً ..

حين نفذت رائحة « السواردوباري » الى انفها .. والتي اختلطت بما تعطرت به « مي وي » .. اهذه العطور لاستقبالها ؟ ..

إذاً .. انه ينتظر قدومها بلهفة ! ..

لعبت يده بالمفتاح وهي تقفل الباب عدة مرات .. تاركة سلسلة المفتاح متدلية تسجل اهتزازات تخدش ذلك الصمت الذي يهيمن على البيت ..

واستدار مرحباً بها .. وصدى خطواتها يتهادى في صالون طويل تتوسطه طاولة ، وعدة مقاعد حديثة العهد .. انها غرفة الطعام .. وفي آخر الصالون دخلت « سمر » غرفة اخرى فيها « فوتويات » بلون النبيذ .. حديثة العهد ايضاً ..

ان هذا دليل زواجه القريب ..

قال :

ـ أعتذر عن عدم تمكني من تنظيف البيت لاني وحيد منذ عدة أشهر .. فقد تركتني زوجتي ..

إذاً هو على خصام مع زوجته ؟ ..

ارتمت « سمر » على مقعد من مقاعد الغرفة .. وارتمى «عامر» امامها على المقعد الثاني ..

قال :

ـ ما رايك في ان ندخل الغرفة الداخلية ؟ . لئلا يسمع صوتنا احد ؟ ..

تبعته صاغرة ..

ومرت في ممر صغير فيه مغسلة وعدة ابواب ..

حين لعبت أصابع « عامر » بأزرار كهربائية .. فهمت منها انه يقطع التيار الكهربائي ..

فتح « عامر » احد الابواب ودخل الغرفة .. وتبعته ..

بعد ان ادار قفل الباب الثاني والثالث ..

وبان لعينيها سريران بينهما ربضت « كومودينا » عليها ضوء صغير ..

وفي الجانب الآخر انزوت مرآة كبيرة مع خزانة التواليت ..

وانعكس اللون النبيذي على وجه « سمر » .. لون الستائر ..

وجالت عيناها في تلك الغرفة وراء ثلاثة ابواب مقفولة .. وحارت اين تجلس ؟ ..

جلست بعد تردد لم يدم طويلاً .. على طرف سرير ..

فاقترب منها وجلس بجانبها .. جلس والابتسامة تشرق على وجهه ..

وطارت الاحرف من الشفاه لفترة .. طارت ترسم خيالات « لسمر » .. حين مدّ « عامر » يده يحيط كتفيها .. مؤهلاً .. مبتسماً تلك البسمة المشرقة التي تكشف عن اسنانٍ جميلة براقة ..

وسرت الرعدة في اوصالها ! .

وغلف كيانها شيء من الخوف ..

ولمَ الخوف ؟ .. هي التي جاءت بملء ارادتها ..

استجمعت « سمر » شتات شجاعتها :

ـ ماذا تقول عني وعن تساهلي ؟ .. من النظرة الاولى آتيك راضية الى بيتك ؟ ..

ـ لقد لمست الدعوة في عينيك .

ـ اما كانت في عينيك ايضاً ؟ ..

ـ بلى .. ولكن لو لم المسها في عينيك .. ما دعوتك ..

حزّ في اعماقها جوابه !! ..

لكنه على حق ! . اما استسلمت له عيناها .. واخذتا تلحّان في التعبير كثيراً عمّا يجول وراءهما .. يوم الحفل !!.

استكان جسدها ليده التي احاطت كتفها .. واحست بدفء جسمه .. وحنانه يسري اليها .. حين ازهر الحب في عينيه .. وحبت شفتاه تبحث متعطشة لفمها ..

اطبقت « سمر » اجفانها على وجه حبيبٍ .. غالٍ ..

وجه اخذ يرتعش بكل جارحة فيه ..

ثم غابت مع انفاسه اللاهبة .. مع همساته المسكرة التي سرت لاغوارها حارة دافئة .. غابت مع ذلك الغالي الذي اصبح اغلى من حياتها .. ووجودها ..

وحين انذرتها الساعة بانها تسير .. سمعته يتكلم بصوت عميق النبرات ..

تكلم عن حاله .. عن مدينته .. عن طفولته ونشأته .. عن والده وحكمه السديدة .. عن والدته وآرائها القويمة في الحياة عن حبه لهما ..

ثم تكلم عن مأساة زواجه ..

لقد رافقت كلماته الصراحة التامة .. وكان لها اجمل الوقع في قلبها ..

إنه صريح معها .. يفتح لها مصاريع قلبه .. ويطلعها على مافيه .. فلمَ تخافه ؟ .. لمَ لاتأتمنه على قلبها ؟ .. وهي التي قدّمته إليه هدية سهلة ..

سألها « عامر » عن رقم هاتفها .. ثم قال :

ـ يجب ان نجتمع كثيراً .. فقد بقي لي في اجرة هذا البيت عدة اسابيع فقط ..

جال في اعماق « سمر » سؤال لم تستطع التلفظ به ...

كانت تودّ ان تقول له :

ـ وبعد الـ « عدة اسابيع » اتراه يكتفي من حبي بتلك المدة القليلة ؟ ..

وصمتت مع الم احاط شغاف قلبها .. صمتت تستمع اليه ولا تجيب ..

وصمتت مع حب في قلبها يخالطه الالم ..

لم يهتم بحياتها ؟ .. لم يسألها عن آمالها .. عن اي شيء .. سوى السؤال عن اسمها فقط ..

لقد تناسى تلك الاسئلة .. وبقيت علاقته معها ضمن تلك الدقائق التي جمعتهما ..

همست له بسؤال :

ـ اتحبني ؟ ..

ـ طبعاً احبك .. ولو لم احبك لما اتيت مرة ثانية الى الحفل .. وقد كان باستطاعتي التخلف عن المجيء بعد رؤيتك في المرة الاولى ..

ـ وانا .. هل تثق في حبي لك وتعرف مداه ؟ ..

ـ طبيعي .. يا « سمر » الحب يقاس بالتضحية .. ومجيئك هذا خير دليل على ذلك ..

شمل الفرح عينيها وحبا الى فمها ..

نظرت إليه بعينين فيهما .. عبادة .. وفيهما صلاة ..

فيهما حب قوي جارف ..

وقد خاف من نظرتها تلك .. حين امتدت يده مداعبة اجفانها ..

قال :

ـ نظرتك فظيعة .. لا تنظري الي هكذا ..

ـ إنه حبي .. الذي يعكس لك نظرتي هذه انها لك وليست لأي انسان .. « عامر » ! انت الوحيد في حياتي الضائعة قبلك .. وسابقى على عهدي مهما طال الزمان ، ومهما كان موقفك مني ..

صمت « عامر » ..

صمت متجاهلاً عهدها ..

قالت :

ـ قل لي يا « عامر » عما يمكن ان يهدم حبنا لاتجنبه !؟ لا اريد ان اخسرك .. لقد غدوت لي كل شيء ..

يبدو أن « سمر » قد تعجلت السؤال من المرة الاولى .. لانها رات ملامح مشاعر غريبة اعترته ..

صمت لفترة يفكر .. ثم قال :

ـ اوصيك بالكتمان من أجل زوجتي .. اما عمر حبنا .. فهذا شيء لا نستطيع ان نحدده .. بل نتركه للزمن .. فكري معي فقط في السعادة الحالية التي نسرقها من الزمن .. سرقة .. فكري معي بأن في نهاية العمر موتاً .. ولا من يعلم متى تكون نهايته ؟ ..

صدمت « سمر » من اجوبته .. وافكاره .. لكن شيئاً في اعماقها عرفت مداه .. وعرفت واثقة انه الحب .. مهما كان .. ومهما كانت اجوبته وآراؤه ..

اجابت :

بعدي عنك يا « عامر » هو الموت لي .. فاهلاً به إن لم اعدارك ..

وتجاهل نبل جوابها الذي دلّه على مدى تعلقها به .. تجاهل وعودها وإخلاصها ..

تجاهل لئلا يقطع على نفسه عهداً بالوفاء ! !

الوفاء لحب عرفت « سمر » مداه من المرة الاولى ..

إنها تحبه للحب فقط .. وليس لاية غاية .

وودعته بعد ان وعدها بأن يتصل بها بعد يومين ليجتمعا ثانية ..

* * *

عادت « سمر » ..

عادت فتاة اخرى تختلف تماماً عن فتاة الامس ..

وفتاة الامس تختلف عن الفتاة التي كانت لا تعرف «عامراً» بعد ..

لقد كانت البارحة فتاة على ابواب حب جديد .. وفجر جديد .. بعد حياتها الماضية القاحلة من كل حنان او أمل ..

لقد كانت تحلم .. اما اليوم فهي تعيش على الحقيقة .. كانت في بيته .. وراته قريباً منها .. واسكرتها همساته ومقاطع صوته العذب الرقيق الذي انسكب في سمعها .. واحالها الى ملاك يطوف السحاب بين يديه ..

هل تنسى الخدر الذي تمشى في اعصابها ؟ .. واحالها الى كتلة مشتعلة بين مطاوي ذراعيه ؟ .

هل تنسى الحروف العذبة التي انفلتت من فمه مرتعشة .. مرددة .. « حبيبتي » ..

مع حبها تدرك انه ليس لها .. هو لسواها ..

لقد شلت امانيها عند حبها له فقط .. عند القناعة برؤيته .. وسماع صوته .. ولن تطمح في العيش معه .. طالما هو متزوج .. وهانيء ! ..

هل تتمنى له سوى السكينة والراحة مع أنها ارتضت لنفسها كل العذاب في سبيله ، طالما ارتضاه لها ! ..

ومرّ اليوم التالي بسمر كانها ثملة من ذكرى الامس الريّان .. وذكرته ..

ذكرته حين ارتمت على الافق الوان الفراق .. التي ملأت جوانحها حنيناً اليه ..

فقد كان يومها بعيداً عنه كالخريف الشاحب ..

كقيثارة بلا أوتار ..

اتخاف الخريف بعدالآن ؟.. وهي التي كانت ايامها شتاء باكياً .. قاتماً منذ الصغر لقد كان اليأس توأم نفسها .. وهو ..

هو .. « عامر » الذي فصل لها هذا التوأم .. وقضى عليه .. وجعل لحياتها معنى وهدفاً ..

واعاد اليها الحياة والامل والإشراق ..

وتمزق المساء ..

واحتضنها الليل ..

الليل الذي بدات مواعيدها معه كل ليلة .. لانه يحمل لها صدى همسات عامر البعيد عنها ..

ويحمل لها احلى امانيها التي تفتحت البارحة بين ذراعي «عامر» ..

ما قيمة الحياة بدون حب ؟ .

حب اي شيء ! ..

كيف كانت تسمى إنساناً ؟. وهي ناقمة على البشرية جمعاء ..

ما قيمة وجودها قبل ان تحب عامراً ؟! ..

لقد احبت الكون بحبه .. احبت بيتها .. وسريرها .. واخاها

احبت الليل والنهار ..

احبت الطيور والهوام ..

احبت كل نبتة ووردة .. احبت حتى نفسها لانها اصبحت شيئاً لدى « عامر » ..

شيء يحس به ويضمه بين يديه !! . شيء له وملكه !! .

* * *

كان اليوم التالي .. يوم موعدها مع « عامر » ..

سيكلمها في الساعة العاشرة ..

انتظرت تستحث الوقت .. لكن الساعة العاشرة خيبت آمالها .. حتى الساعة الحادية عشر ..

إذ مزق رنين الهاتف صمتها .. وانتظارها ..

اعتذر « عامر » عن تأخره بسبب الاشغال المتراكمة عليه ..

لم لا تقبل عذره ؟ وهي التي اصبحت تتقبل منه اي شيء ..

وتواعدا في منزله .. الساعة السابعة مساءً .. ينتظر كالعادة وراء فتحة الباب .

زحف ركب الزمن متكاسلاً ، حتى توقف عنـد السابعة .. موعدها معه ..

ويبدو أن مرارة الانتظار التي ذاقتها خلال تلك الساعات الفاصلة الى الموعد ، قد جعلتها تتأخر ربع ساعة ..

طواها الدرب كالمرة السابقة .. وتلقفتها الدرجات وفتحة الباب الصغيرة ..

ووجدته ينتظر صامتاً يهيمن عليه قليل من الشك والتساؤل..

ـ لمَ تأخرت يا سمر ؟ ..

ـ أعتذر عن تأخري .. لم أحسب الزمن للطريق ..

ـ انا في انتظارك منذ نصف ساعة ..

ـ صحيح ؟ ..

قالتها آسفة لتلك الـ « نصف ساعة » الضائعة من عمر حبها ..

ثم عاد له الابتسام :

ـ أهلاً وسهلاً .. أهلين وسهلين ..

كانت الاسئلة منه والاجوبة منها تختلط مع صرير المفتاح في القفل كالمرة الماضية .. واهتزازات السلسلة المتدلية من المفتاح ..

وأحاط كتفيها بيده بصورة آلية .. ودخلا الى الغرفة بعد أن قطع التيار الكهربائي .. وقفل البابين الفاصلين الغرفة عن الصالون الخارجي ..

دخلت « سمر » غرفتهما .. تلك الغرفة التي تجمع عامراً بزوجته مدى العمر !! ما أسخف الزمن !؟ ..

يقنعنا ونحن في أوج السعادة بالاستكانة والهناءة .. حتى إذا ما عاد ليسلبنا ما وهبنا .. ندرك مدى اندفاعنا في الأوهام .. وتمادينا في غيّنا .. في طلب اشياء زائلة ليست لنا ! ..

جلست « سمر » على طرف سرير خمّن ظنها انه سريره ..

إنها لا تريد لمس سرير زوجته .. وقد ميزته من ترتيبه ومرور الايام عليه لانها بعيدة عنه .

امتدت يد « عامر » تخلع العقد المتجملة به .. حين اقترب منها جاذباً جسدها نحوه ..

واستكان راسها على صدره ! ..

استسلمت « سمر » لحركته تلك .. التي رافقها وميض في اعماقها كالنار ! ..

وميض شلّ منها العزم .. ثم هدأت كالقطة الاليفة ..

ضعيفة .. مستسلمة .. ناسية الزمن والأيام ...

وسالها عن نفسها .. عن رغائبها .. عن ميولها ..

واجابته بصراحة وصدق ..

لقد كان ترددها في الإجابة على سؤال يطرحه ينتهي عند كلمة فيها كل الثقة .. « وحياتي عندك » ..

ويكررها « وحياتي انا » فتفتح له على اثرها مغاليق قلبها .. وتسكب امامه ما يغلي في إناء صدرها التعب القلق ..

وهنا نشط الزمن ..

نسي الكسل الذي عذبها طوال النهار ..

قامت الى المرآة تسوي شعرها .. وتضع العقد الذي كان على السرير لساعات .. لقد كانت كل حبة فيه تشهد على وجودها مع « عامر » ..

وانعكست صورة « سمر » في المرآة ..

وتساءلت :

ـ اهذه هي « سمر » ؟ .

وجه يتضرج بالدماء المندفعة اليه .. والشعر اشعث .. وعينان ؟! فيهما شيء لا تستطيع التعبير عنه ..

حاذاها « عامر » متلمساً يديها :

ـ اعيدي « تواليتك » جيداً ، لئلا يشعر من يراك خارجة بأنك فتاة ثانية ..

اجابته متخابثة :

ـ الا تعتقد فعلاً انني اصبحت فتاة ثانية .. غير الاولى .. ؟

ابتسم متجاهلاً معنى إجابتها ..

ثم قال :

ـ أستطيع رؤيتك غداً ؟ ..

واعتراها شبه خوف مبهم !! اتأتي كل يوم ؟ ..

ـ بعد غد .. إذا لم يكن لديك مانع ؟ !

اجاب بسهولة :

ـ والذي بعده .. وبعده .. اذا كنت ترغبين في هذا ؟ ! ..

اعادت جوابها :

ـ بعد غد .. إذا اردت ! ..

رفّ في اعطافها حزن .. لمَ تساهل في تاخير الموعد ؟ .. اما كان الاوفق لو صبّ نبراته في اذنيها مكرراً طلبه .. « يجب ان اراك » ! !

لو قال لها هذا .. لفعلت كل ما يطلبه منها .. ولو كلفها حياتها ..

ثم قال :

ـ على كلٍ .. سأتصل بك في السابعة مساءً لنؤكد الموعد ..

وسارت « سمر » وراء القامة المديدة من حجرة الى اخرى حتى جمعهما الوداع وراء الباب الاخير وتنزهت نظراتها عبر ذلك الوجه الذي ينبض حناناً .. وضمّت اصابعه بين يديها تقبلهما شفتاها واحدة واحدة .. وانسلّت خارجة الى الطريق ..

* * *

عادت « سمر » مع إحساس غامض وقلق دفين ..

اصبحت تخاف فقدان « عامر » وتخاف من مجرد التفكير والتساؤل في كل مرة تعود بها .. أتراه ثانية ؟ ؟ .. كانت تحس في داخلها بأن الاحزان تمتزج مع حبها .. وان القلق يتكهّن لها بانها ستفقده يوماً .. لكن التساؤل يحيرها ..

وتخاف عجلة الزمان .. وسرعة الفراق ! وهي التي لم تنل من حبها معه سوى القليل ..

تمددت على سريرها .. مع انغام ساحرة انبعثت من المذياع .. في ليل حالم ناعم ..

في اعماقها حب والم .. وضياع ..

وتحسست شعرها ووجهها .. كل مقطع فيه لمسة من يدي « عامر » .. حتى جفونها اغمضتهما بحركة من اصابعها كما فعل « عامر » ووصف نظرتها بالفظيعة ..

غمغمت تئن :

عامر .. احبك .. انا على موعد معك كل ليلة .. في غرفتي.. مع وحدتي .. وضوء مذياعي الشاحب يذكرني بأملي الشاحب في رؤياك دوماً .. حينما ينزف الشجن من قلبي الكئيب ..

وتتخيل الهامة الحلوة امامها .. في الظلام .. فتمتد يداها لتقبض على الفراغ .. وتعود خائبة الى الفراش تعبث به .. وتلهث كمن يصارع الحياة ..

عامر .. انت لي .. لي وحدي .. لا لزوجتك ..

وانتفضت « سمر » .. كمن لسعته عقرب .. لقد غفت كثيراً عن التفكير في زوجته ؟ ..

يا للساذجة ! اتحصل عليه وتتركه ؟ ..

جالت اسئلة كثيرة في خاطر « سمر » ..

اسئلة عذبتها.. وضاعت معها في بحران من الهموم.. واسلمتها لأرق فظيع طيلة ليال عديدة ..

ما مصير حبها ؟ .. ما مصيرها مع « عامر » كيف زوجته ؟ .. لمَ تركته ؟ .. هل هي جميلة ؟ ..

هكذا كانت أيام « سمر » ولياليها .. متتابعة .. متساقطة .. كما تتساقط أوراق الشجر في مهب ريح الخريف .. من الاسئلة والقلق والضياع ..

أيام « سمر » البعيدة عنه .. حفنات من الفراق .. ومن العمر الطويل ..

إذ انتظرته في الساعة السابعة .. موعدهما الثالث .. ولم يتصل بها ..

أيجب أن تطمع دوماً في رؤيته ؟ ..

الا يجب أن تعتاد الحرمان ؟ .. وهي التي كانت تعرف تماماً أن نهايتها معه هي الحرمان ..

فلمَ الآلام ؟ .. ولمَ التجاهل ؟ ..

لتنتظر ما كتب لها في لوح القدر علّه ينصفها .. ويعطف عليها .. ومرّ أسبوع ..

كأنه عمر مديد في فراقه ! !

مرّ دون أن يكلمها أو يسأل عنها ! ! .. وهي تنتظر دون أن تمل من التفكير والحنين اليه في كل ثانية مرّت بها .. وخانها الصبر .. فاتصلت به ..

وأجابها بلهجة يعتريها الفتور .. كأنه تذكر لتوّه أن في حياته إنسانة تسمى « سمر » ..

قال :

ـ أتأتين ؟ ..

ـ كما تريد ..

ـ في السابعة إذاً ..

وأغلقت السماعة وهي تحتضن لهفتها ..

هل أخطأت في اتصالها به ؟ ؟ ..

أما كان الاحسن لو انتظرت ليخابرها .. ويطلب منها المجيء ..

لمَ تحرّشت به ؟ .. ولو بقي الامر له .. أتراه يخابرها محباً مشتاقاً ؟ ..

هو بالنسبة لها ، أول من فتح عينيها على معنى الحياة .. أما هي بالنسبة له .. ليست سوى إحدى الفتيات اللاتي مررن بحياته كتسلية عابرة ..

ربما يأتي يوم ينسى فيه وجهها .. وينسى أنه رآه في فرصةما!!

لقد أصبح لها كل شيء .. حلم الليالي وزهرة الاحلام العاطرة ..

هو لليلها المصباح ، ولنهارها الإشراق والجمال ...

أترى جمالاً بعد اليوم إلا في وجهه ؟ ..

أترى سكينة الا في دربه ؟ ..

أتعرف طعم الحب إلا بين ذراعيه ؟ ..

أتحس بالهناءة إلا في قربه ؟ ..

ونثرت شعرها الى الوراء بهزة تنفي شيئاً أصبحت متأكدة من صدقه ..

ـ كلا لن انساه .. ولن اكون لسواه ما حييت ..

لن اعرف طعم الهوى بعد هواه .. ولو امضيت عمري على ذكراه فقط ..

لينسني إذا اراد .. وستبقى ذكراي لديه .. وذكرى غرامي له .. « وقد لمسه متأكداً » نقاطاً على الحروف ..

سيذكرني يوماً .. عندما يحب إحداهن وتعذبه « طالما يفتقد الحب » ..

سيذكر من عذبها ونسيها .. سيذكر من ضحت في سبيله بكل عائق امامها .. حين اتته صاغرة طائعة ..

سيذكر انه علمها تذوق الوجود ، وعاد ورماها في الظلام ..

كيف تجد فيه « سمر » تواماً لروحها ؟ ولم يجد فيها سوى عابرة تنتسى ..

ودلفت الساعات في غياهب الزمن حتى الساعة السابعة .. التي غيبت « سمر » في دربه الحبيب .. ودرجات بيته .. وفتحة الباب ..

كان جماله مشرقاً .. واناقته تزيد في جماله في « بذلة » رمادية مع « جيليه » مزركش ، يلتف على جسده متعالياً مزهواً ..

جلست « سمر » على طرف السرير ..

في عينيها خيال آلام تتجول .. وامام نظرها إشارات استفهام وتساؤل تتراقص ..

جلس « عامر » بجانبها .. كانه لم يغب عنها طويلاً .. كانه

لم يتقصد الابتعاد عنها .. سوى كلمة عفوية خرجت من فمه .. ككل شيء عفوي في حياته :

ـ هل انت غاضبة ؟ ..

وكانت الإجابة هزّة من راسها تؤكد النفي ..

ولمَ تغضب منه ؟ وهي المسالمة دوماً ..

شدّها الحنين الى صدره .. واستكانت لذراعيه الحانيتين ..

وعذبتها الحيرة وهي تختزن من لهاث انفاسه .. وتنبش بين طيات كلماته مدى حبه لها ..

ايمكن ان يسمى هـذا حباً مؤقتاً ؟ وقـد لمسته حاراً قوياً كضرام النار ..

ونبهتها الساعة الى ان موعدها قد ازف للعودة ..

وتحركت من مكمنها بين ذراعيه تريد الذهاب ..

مدّ اصابعه مداعباً خدها وذقنها .. ثم احتضن يديها بين يديه ..

إنها تذكر انها تأهبت للانصراف .. ولم تعد تذكر الا انها معه ثانية .. كأنها اتت اليه الآن ..

اتت اقوى ما تكون عاطفة وهياماً ..

واستسلم راسها لقبضة يده وهو يشد شعرها الى الوراء .. ليعب من ذلك الوجه ..

تمشت القوة في اوصالها حين تلاقت اسنانه مع اسنانها .. مع انفاس ممزوجة ..

تمشت القوة التي لمستها واضحة في حبها وراء ضعفها معـه واستسلامها لما يريد ..

ولمستها في تأثيره عليها في تلك الساعات التي تجمعهما معاً ..

ومرت لحظات طوال .. في الظلام .. ..

رفّ قلبها وانتفضت كعصفور ذبيح ..

لقد نسيت الزمن بين يديه .. كأنها ملك له .. ولوحده ..

اليس لها اخ يحاسبها اذا اتته في منتصف الليل ؟ ..

ودّعته وهي تعانق اصابعه بين يديها وشفتيها.. وانسلت مسرعة في الظلام ..

واستقبلها اخوها حانقاً .. كأن غضب الدنيا كلها قد صبّ عليه .. ونزل بها صفعاً وركلاً .. لانها استعملت تلك الحرية الى اقصى حد ..

اتأتيه في منتصف الليل ؟ ..

هذا مالا يحتمله .. وصمدت للعاصفة .. وماذا تقول ؟ ..

اتقول له .. كنت عند حبيبي المتزوج!. وانا بالنسبة له لاشيء..

واحتضنتها غرفتها ..

كم حنت عليها في ليالٍ قاسية .. ومحن صعبة !!

وارتمت تعانق الفراش كطائر يلهث وهو ضائع عن عشه ..

وتلوى الجسد بين ثنايا الفراش والوسادة التي عانقت وجهها .. ولملمت دموعها وتساءلت :

ـ لمَ رايته ؟ .. لمَ احببته ؟ ..

لمَ ضيّعتني الحياة .. وكتبت عليّ لقياه وهو البعيد ؟ ..

بعد الصيف عن الشتاء .. بعد قمة الجبل للهوّة السحيقة ..

ايظل في قمته وشموخه وانا في هوّتي .. اذهب اليه متمسكة باحجار السفح التي تنزلق تحت يـدي .. واهوي .. واعـاود الصعود .. لأصل اليه .. لأعيش معه فترة .. ويعود الواقع يرميني الى هوّتي ..

ثم انّت هاتفة :

رباه ! اعنني .. انت الذي كتبت لي هذا ..

واخيراً اراحها النوم من افكارها .. وغضب اخيها .. وحبها البائس ..

* * *

مرّ الصيف مودعاً .. وهو يحمل بين ثناياه ذكرياتهـا المرة والحلوة ..

ذكرياتها في لياليه ..

لياليه التي كانت قد جمعتها بعامر .. وحنت عليها بظلامها حين كانت تتسلل من بيته .. ويلفها الطريق الى بيتها ..

كانت تعيش لحظاتها تلك مع المساء .. مع غروب الشمس الذي يرسل انعكاسه الناري على نوافذ تلك الغرفة التي تجمعهما .. حتى اذا ما زحف الظلام ، كانت ترى مقاطع وجهه كما هي مع نور المساء .. كان قسمات وجهه اصبحت لديها مألوفة تسري في دمها وكيانها .. فكانت تتحسسها وتعرفها في النور وفي الظلمة ..

وجاء الخريف ..

إذ اصبحت تحنّ للقيا « عامر » اكثر .. لانها تخافه وتخاف عودة حياتها الى كآبتها الغابرة .. اتعود الى عزلتها وانطوائها بعد

ان عرفت عامراً ونسيت معه طعم الوحدة .. واحبت كل شيء في سبيله ..

وطال انتظارها ..

وعامر لايسأل عنها.. ولم تجرؤهي أن تكلمه .. وماذا تقول له؟.

اتصف له فتور علاقتها مع أخيها بعد ان ثار عليها مرة بسببه ؟..

ولماذا تشكو ؟ ..

اتراه يهتم لشيء يجري في حياتها ؟ ..

ولو كان يهتم .. اما كان الاحرى به لو سألها عن حالها ؟ ..

وهو الذي يعرف تماما كيف تنسى ظروفها وهي معه ..

وانهارت مقاومتها مع الزمن ! واتصلت به ..

كان جوابه أقرب الى الجفاء منه الى الشوق ..

وتجمّدت لهفتها مع تلك الرنّة الباردة في حنايا صوته حين قال:

ـ سأتصل بك في السابعة مساءً ان لم يكن لديّ ما يشغلني ..

وفي السابعة كانت « سمر » امام الهاتف تنتظر ..

طال صمته ..

وطال انتظارها ..

لقدعرفت معنى المرارة والهزيمة ، حين بدات تخلع فستانها الاسود الذي ارتدته لتريه لعامر ! ..

ودوت قهقهات ساخرة في سمعها :

لقد ملك .. لقد نسيك ..

ومع شحوب الخريف .. شحب أملها ..

حاولت نسيان « عامر » وما استطاعت ..

واحست انهياراً في جسدها ، وخفقاناً في صدرها اتعبها واقض مضجعها ..

ثم بدأت سحب الغضب تنقشع عن قلب اخيها .. حين راى شحوبها وراى جسدها يذبل كالزهرة الزاوية .. فحاول ان يخرجها من عزلتها هذه الى المجتمعات والنزهات .. لكنها كانت ترفض معتقدة ان ما بها ليس مرضاً .. بل من آثار صدمتها من حب « عامر » الذي تأصل في صميمها ..

لقد باتت تحن للموت الذي نبهها منه مرة ..

تتمناه .. لتتخلص من رواسب هذا الغرام الذي اضناها وعصف بحياتها ..

وانعشها حنان اخيها الذي شملها ..

وفي ليلة ..

ليلة جمعتها بأخيها .. الذي اخذ يداعبها بنكات حلوة .. كانت البسمة تزحف الى فمها ثم تعود واهية عليلة الى مكمنها .. ودهشت إذ قال فجأة ..

ـ سمر .. ما رايك في « عادل » صديقي .. اتذكرينه ؟ ..

ـ نعم يا اخي .. ولكن .. لم تسألني عن رايي فيه ؟ ..

ـ لقد طلبك مني .. اتوافقين ؟ ..

ـ طلبني انا .. لكنه لم يرني سوى لمحات ..

ـ نعم لمحات .. لكنه اعجب بك .. وبهدوئك ..

ـ اعتقد انني لا اوافق .. إذ احس في جسدي انهياراً ينبيء بمرض .. فلست اهلا للزواج .. والزواج له مسؤوليات كثيرة ..

ـ ماذا تقولين ؟ .. اذا كنت كذلك فلمَ لا نذهب الى الطبيب لفحصك ؟ ..

ـ لا اريد .. افضل الراحة فقط ..

ـ لا ياسمر .. يجب ان نذهب .. ربما غداً ..

والقى عليها تحية المساء بعد ان صبّ من عينيه الحنان والاهتمام لوضعها هذا ..

وعطفت عليه .. وهي التي كانت ناسية ان في الكون عاطفة غير عاطفتها تجاه « عامر » ..

نامت « سمر » ليلتها هذه وهي تستشعر السعادة .. انها لمست في انسان ما الحنان .. لا النسيان والإهمال دوماً ! ...

* * *

مع طلة الصباح احاط بها شوق عاطر ..

شوق الى عامر ..

واتصلت به ..

ـ اهلاً وسهلاً .. اهلين وسهلين ..

ـ بكم يا عامر ..

قالتها بصوت واهٍ يحمل بين الحروف الضعف والحزن ..

ـ كيف الاحوال ؟ ..

ـ بخير .. عندما اسمع صوتك ..

ـ شكراً .. لقد شغلت بعودة زوجتي ..

صبتها « عامر » كالصاعقة ..

ـ صحيح .. مبروك يا عامر .. تهانينا ..

ـ شكراً .. بلغي سلامي الى سهام ..

ثم انهى المحادثة ..

أهذا هو الشوق الذي دفعها اليوم ؟ ..

يفاجئها بهذا الخبر ! ! كأنه يقوله الى إنسان عادي ؟ .. لقد نسيها حتماً بين ذراعي زوجته التي اوحشته كثيراً ..

واخيراً تحياته الى سهام !

كيف قفز ذكر سهام الى ذهنه ؟ ! .

أيتهرب من الحديث معها ؟ .. أم حقيقة كان يبلغ شوقه الى سهام ؟ ..

هنا عرفت « سمر » بمرارة تعتصر قلبها أن لا مكان لها بعد اليوم في حياته ..

فطوت قلبها على ما به ؟ .. وخرجت من عزلتها ..

خرجت إلى الناس ..

ذهبت تزور سهام وتبلغها سلام « عامر » .

وبحثت في سجل رفيقاتها عن التي يجب أن تزورها .. ولمَ لا تتناسى ما أصابها ؟ ..

حاولت « سمر » جهد طاقتها أن تنسى بين الرفيقات عامراً ..

ولكن ؟ ..

ما اكثر ما يدّعي الانسان اشياء لا يستطيع تنفيذها ! .. وهو ادرى الناس بما في اعماقه ! ..

لمست « سمر » المرض يزحف نحوها ..

لقد ازداد انهيار جسدها .. ووخزات في قلبها اضنتها .. وضيق في صدرها اتعب وجودها .. واخيراً قبلت مرافقة اخيها إلى الطبيب ..

وهناك .. تمددت على طاولة الفحص .. وهي في استسلام مطلق للأقدار ..

لذلك لم تأبه للطبيب حين انتحى باخيها ركن الغرفة .. واخذا يتكلمان عن نتيجة فحصها ..

ثم نهضت لتذهب مع اخيها الى طبيب ثان ..

قرات اسمه حين دخلت مع عبارة « اختصاصي في امراض القلب » ..

ثمة رعشة خفيفة اعترتها ..

هل قلبها مريض ؟ ..

ولمَ قلبها بالذات؟.. ولمْ يكن غيره.. الانها حملته فوق طاقته؟..

حملته حبها .. وعذابها ..

ام الحرمان هو الذي اورده هذا المورد ؟ ..

خواطر متضاربة عصفت بها وهي تمشي قرب اخيها .. وتدخل غرفة المعاينة .. وَيبدأ في تخطيط قلبها ..

غادرت «سمر» طاولة الفحص.. وهي تتفرس في وجه الطبيب..

ماذا سيقول ؟ ..

انصتت لنصائحه .. وهو يطلب منها الراحة التامة .. وعدم التفكير فيما يزعجها .. واوراق كتبها ودفع بها الى اخيها .. فيها اسماء الادوية التي يجب أن تتناولها وتثابر عليها .. على ان تعود بين آونة واخرى ليفحصها ايضاً ..

ونفذت الوصية كما طلب منها .. من ادوية .. وهدوء .. ومكوث في السرير ..

إلا من حنين يشملها دوماً .. حنين الى « عامر » مهما فعل بها !

وتحسنت صحتها قليلا .. لكنها في اعماقها كانت في ضياع ..

ضياع تام كانها آلة تسير .. غير شاعرة بشعور احد .. ولا يرى في ملامح وجهها اي تبدّل .. اي الم او فرح .. كانت في ضياع الا مع نفسها ..

نفسها التي كانت مع «عامر» دوماً .. والتي كانت تنفرد بها عندما تدخل غرفتها وتلتفها ظلمتها الاليفة ..

سجلت « سمر » شوقها في رسالة بعثتها إليه .. قالت :

عامر :

انا في حزن دائم يا عامر .. فما الذي فعلته بي ؟ .. قل لي بربك ما فعلت بي ؟..

احببتك وما احببتني .. اخلصت لك وعذبتني ..

عبدتك وما دريت بي .. وهبتك ما اردت وما اكتفيت ..

فلمَ نسيتني ولم تهبني نسيانك ؟ ..

يجب ان انساك يا عامر ! ولكن كيف ؟ ..

انساك وموسيقى صوتك في اذني ؟ ..

انساك وعبق انفاسك دوماً كأنه يلفح خدي ؟ ..

انساك وعيناك امامي تسكب فيّ الحنان والعاطفة ؟ ..

قل لي يا عامر .. كيف انسى وتلك الذكريات العاطرة تعيش ابداً في خافقي ؟ ..

وانا التي كنت لا افهم طعم الحياة .. ولا افهم معنى ان يعيش الإنسان محباً لاحد ؟ ..

كنت في نقمة على البشر .. كنت في يأس .. كنت في وحدة ..

ثم امحت افكاري كلها بين يديك .. وضاعت احزاني معك .. إذ غدوت لي الأمل .

لقد أنرت ليالي وعدت لتظلمها .. وسهلت دربي وعدت لتلقي العثرات فيه ..

لمَ لمَ تتركني في تيهي ؟ .. لمَ لمَ تقل لي منذ اول مرة : انا لست لك ؟ .. حرام ان اعذبك ..

اما تخاف ان تعذب يوماً يا عامر ؟ .. ام تعتقد في قلبك الصمود الكافي ؟ ..

إنك بشر ياعزيزي .. واخاف عليك من الايام ان حرمتك ماتحب ..

اخاف عليك من رفة النسيم .. وانت لا تخاف علي ولو من الجحيم ؟ ..

آه ما اقسى قلبك ! كيف تكمن القساوة وراء الوداعة والحنان ؟ .

الكل يشهدون لك باللطف ، ولكنهم يشهدون لك بالغدر أيضاً ..

فلمَ قرنت اسمك مع تلك الكلمة ؟ الا تخاف نارها ؟ الا تهاب اشواكها ..

سامحك الله .. وهنا بك زوجك ..

ما ذنبها ؟ .. انا احبها كما احبك .. هي قطعة منك وتحمل اسمك .. وستحمل لك الاولاد يوماً ..

اتمنى ان اراهم .. لأرى فيهم شبه ابيهم ..

المخلصة سمر ..

انهت « سمر » رسالتها والدموع تملأ اجفانها .. ونادت هامسة:

عامر ! ..

هذا هو هتافها كل ليلة .. كانت تهتف باسمه قبل ان يعطف عليها النوم .. ويريحها من اشباح الظلام .. وتسمع صدى صوتها الخافت يمتزج مع النسيم الذي يدخل نافذتها ..

كانت تنظر اليه بامتنان وهو يخرج من النافذة الثانية مسرعاً .. حاملا هتافها الصادق بين ذراعيه ..

إلى البعيد .. الى هناك ..

الى بيت « عامر » ليسكبه في اذنه الغافية ..

ثم يدور النسيم ويطوف حول البيت .. فتصدمه النوافذ والابواب المغلقة .. وما من فتحة يمرّ منها .. ويأسف لفشله هذا .. إذ يحمل الهتاف الى جدران المنزل وطيناته .. لعل عامراً يسمعها حين يخرج منه ..

خافت « سمر » من تراكم هتافاتها ..

خافت على « عامر » ..

خافت أن تصبح تلك النسائم رياحاً تقتلع منه الهدوء ..
لتقلع إذاً عن الهتاف .. فقد أصبحت تخاف عليه من شدة حبها ..

* * *

احتضنت « سمر » سماعة الهاتف دون تفكير .. وأدارت الرقم ..

ـ الو نعم ..

ـ مرحباً يا عامر ..

ـ أهلين وسهلين ..

ـ وصلتك رسالتي ؟

ـ نعم ..

قالها بعتاب ..

ـ كيف صحتك ؟ طمنّي عنك

ـ لا باس .. ولكن ..

ـ لكن ماذا ؟ قل ..

شملها خوف إذ ظننته مريضاً كما هي مريضة ..

لكنه قال :

ـ أستطيع أن أراك اليوم .. فزوجتي عند أهلها .. وستأتي بعد يومين ..

ـ سآتي يا « عامر » انتظرني ..

نسيت « سمر » كل ما مرّ عليها قبل اليوم ..

نسيت مرضها .. نسيت هجرانه لها .. نسيت الشوق الذي كان يعصف بها والحنين الذي كان يعذّبها وهو لاهٍ بعيد ..

وتجملت حتى الموعد .. كل وقتها مرّ أمام المرآة .. تتفحص وجهها وجسدها .. هل ذهب المرض بجماله ؟ أم لا تزال تعجبه وترضيه ؟ ..

وخرجت قبل الوقت بدقائق .. تعبّ من هواء الطريق .. علها تختزن منه الكفاية .. لئلا يتعبها قلبها بين ذراعيه ..

يجب الا يشعر بمرضها .. يجب أن تظهر أمامه كأحسن مايكون شكلاً وأوفر ما يكون صحة ..

حملت جسدها في سيارة الى بيته .. وتلقفتها الدرجات .. وفتحة الباب .

قام مرحباً كعادته .. يغلق الباب ويقفله عدة مرات ..

استدار « عامر » ليحاذي « سمر » .. ليس به حتى ولا ومضة من الشوق بالرغم من مضي زمن طويل مرّ على فراقهما .. وصافحها جسده في « بيجاما » بلون السماء .. وقد أحاط عنقه بمنشفة بلون الفستق .. وهيأته تدل على مفارقته النوم لتوّه ..

بين إطباقه جفونه آثار النوم .. وشعره الذي مشطه مبتل بالماء .. اذ نفرت منه خصلة أمامية انحنت على جبينه تحيي « سمر » ..

ابتلعهما الممر والبابان ..

وجلسا متجانبين على السرير بعد أن اسكت الموسيقى المنبعثة من المذياع .. ولمّ الموسيقى وصوته لديها احلى من أروع المعزوفات ..

حملت « سمر » تلك الدقائق السعيدة التي تمضيها معه كل ما يعتمل في قلبها من شوق وحب مفعم .. وحملها هو حبه وهمساته دون أن يشير الى رسالتها بشيء .

ما احبت اسمها الا حين تنفلت حروفه من بين شفتي عامر ..

حروف يلفها الحنان واللهفة ..

كم يصوّر لها حبها صدق حبه في القرب ؟ .. وفي البعد يعذبها ويشغلها ..

ثم اسندت موضع قلبها لرعشات اختلجت فيه .. إذ سألها « عامر » واللهفة تقطر منه ..

ـ ما بك يا سمر ؟ ..

ـ لا شيء يا حبيبي .. انا سعيدة .. سعيدة .. قل لي .. تكلم .. كلمني عن زوجتك وعن حياتك معها .. ارني صورتها ..

ـ سأريك صورتها .. هنا في هذا الدرج ..

ثم فكر لحظة .. لماذا يزعجها ؟ .. هي في غنى عن رؤيتها ! .. طالما تراه ويراها .. وتحبه ويحبها .. قال متداركاً :

ـ لا أعتقد أن لها هنا صورة .. على كل سأريك إياها يوماً ما ..

ثم عاد لنفسيهما .. وتكلما كثيراً .. عن اشياء تختزنها له .. ويختزنها لها ..

وكان صافياً معها كالماء الزلال الرقراق .. وهي صافية معه اكثر .. لا تشوب علاقتهما هذه شائبة .. فلمَ الآلام تعتريها في بعده ؟ ..

أيمكن أن يكون لها دوماً ؟ وهي التي عرفت منذ اول مرة انه متزوج ..

الا تكفيها دقائق حبه هذه ؟ ..

نعم تكفيها على ان تكفل رؤيته .. وكيف تكفلها ؟ وهي التي تسير بها الآمال نحو الفناء ..

الفناء في حبه .. والفناء في صحتها ..

اخفت « سمر » مرضها واحزانها عن « عامر » .. ونسيت معه كل شيء .. إذ عاشت معه وله في ساعات سعيدة من عمرها الطويل البائس ..

عاشت كلص يسرق !! .. الم تسرق سعادتها منه ؟ ..

الم تسرق حبه وقبلاته التي يجب ان تكون لزوجته فقط ؟ ..

لو علمت تلك الزوجة يوماً بسرقتها هذه ؟ فماذا يكون موقفها ؟.

إن « سمر » تتالم لألمها .. ولكن .. اتضمن تلك الزوجة اخلاصه التام ؟ ..

ان « سمر » تحب تلك الزوجة من اعماقها ، اليست زوجة « عامر » ؟ الا يجدر بتلك الزوجة ان تحب «سمر » لانها تحب زوجها ؟ ..

كان لقاؤهما قصيراً بسبب موعد « عامر » مع اخيه ..

نهضت « سمر » تسوي شعرها ووجهها .. ونهض « عامر » يرتدي ثيابه متاهباً ايضاً للذهاب ..

القت « سمر » نظرة اخيرة على تلك الغرفة التي شهدت اسرار حبها ..

اسرار سعادتها ولقاءاتها مع اليفها وحبيبها ..

وخرجا معاً الى الصالون ..

تروت قدما « سمر » في المسير .. حين انصت « عامر » لضوضاء خارج البيت ..

لكن « سمر » لم تسمع شيئاً .. فسألته :

ـ ما بك ؟ ..

قال :

ـ اسمع ضجيجاً في الخارج ..

ـ حينما اكون معك لا اسمع شيئاً خارج نطاقنا ..

ارتسم شبح ابتسامة على وجهه .. وقد امتدت يده الى طرف ردائه الايسر .. وازاحه عن موضع قلبه :

ـ الا تسمعين هنا شيئاً ايضاً ؟ ..

كانت امنية « سمر » منذ دقائق ان يظل رأسها على صدره .. لتغترف لمشاعرها راحة تعينها على الحرمان في الايام المقبلة .. وجاءتها حركته تلك كأمنية تحققت لتوها .. فارتمت على صدره محيطة جسده بيديها .. واضعة رأسها على مكان قلبه .. ثم سكنت في غفوة قصيرة ..

واستكان لها .. كأن عطفه عليها قد احاله الى كتلة حنان حالم دافىء ..

انسلت « سمر » من فتحة الباب الذي أغلق وراءها .. وطواها الدرب ..

ركبت اول سيارة صادفتها .. وعادت ..

عادت الى غرفتها .. الى وحدتها ..

* * *

اصبحت أيام « سمر » عاتية .. فيها مرارة الحرمان .. فيها

شبح المستقبل المخيف .. وفيها وحشن المرض ينهش من صدرها وقلبها .. ويرميها الى الآلام والضيق ..

ثم أصبحت ترى في الهاتف شبحاً قابعاً يرقبها .. واحيانا تراه حبيباً حنوناً .. لانه يحرمها من صوت « عامر » لمدة طويلة .. وتارة يسمعها صوته الحبيب .. فيه العطف احياناً .. والجفاء احياناً .. وهي صابرة .. صامتة .. مع محنتها هذه !.

وهل يصح ان تسميها محنة ؟ .. وهي التي تحس بها سلوى لتعاستها الماضية .. ومرضها الحاضر .. وجهلها للمستقبل بين يدي القدر ..

ومع الشتاء والعواصف ونواح الرياح هزها الشوق اليه .. واتصلت به ..

كان يكتنف صوتها الحنان والشوق ويكتنف صوته الجفاء والفتور ..

وصدمت ..

صدمت من لهجته القاسية .. اتراه ملها ؟ .. وملّ حتى محادثتها من بعيد ؟ ..

اتراه يتمنى الا تخابره ؟ وما يدريها ؟ والبعاد ناشر اذياله بينهما؟.

كيف لها ان تعلم .. وهي التي كانت كثيراً ما تشك في حبه .. وتعود قانعة راضية ، كلما جمعهما لقاء ..

كيف لها ان تعلم .. والصوت بعيد عبر الاسلاك ؟ ..

لكنها ما استطاعت ان تتصور عينيه وقد غادرهما الحنان الذي كان يتسرب الى أعماقها ..

ما استطاعت أن تتصور الابتسامة تفارق شفتيه ! !

انهت « سمر » حديثهامعه لئلا تزعجه وقد رات في الجوغيوماً . .

واصابها من صدمتها تلك حزن غريب الشكل .. شملها طيلة ايام عديدة .. وقد لمست الشفقة تطل عليها من كل عين ترقبهـا . . واسترسل هذا الحزن كثيراً في اغوارها ، وانساب في نفسها .. ومع ذلك وجدت معه راحة .. وبعدا عن الآمال الكاذبة التي كانت تداعبها دائماً ..

تناست الهاتف ورقم عامر .. ولم تعد يدها تلمسه ..

ومرت الايام .. وقست الليالي .. اذ رانت الوحشة على حياة « سمر » مع فراغ قاتل .. والم دفين احالا وجودها الى العدم إلا من منبع الحنان الذي شملها من اخيها . . وصديقتها « سهام » . . وهدات نفسها قليلا .. وغفت آلامها مع ذلك الإشراق الذي كان يطل من وجه اخيها كلما اجتمع بصديقتها سهام .. ورات الحمرة تتمشى في وجه صديقتها تلك من نظراته المعبرة ..

لقد حاولت نسيان قصة حبها لترى قصة حب جديدة تنسجها الايام ، وينسجها مرضها الذي كان السبب في جمعهما معاً ..

صادقت « سمر » السرير الذي اصبح اليفها .. فهو ارحم من ضياعها وشرودها الذي كانت تعيش فيه .. كانت تتناسى مرضها لتظل على اهبة لقيا « عامر » اما وقد نسيها واهملها .. والمرض تلقفها ، فمن يعطف عليها سوى سريرها ؟ ..

وازدادت العلة بها ..

وازدادت زيارة الطبيب .. ثم لازمتها « سهام » .. ترعاها ..

وكان يوم ..

رن جرس الهاتف .. وكان المجيب صديقتها :

ـ الو ! سمر ..

ـ لحظة من فضلك ..

نادت سهام :

ـ سمر ! هناك من يطلبك ..

نشطت انفاس سمر .. اتراه « عامر » ..

ـ الو .. مين

ـ سمر !

ـ نعم يا عامر .. اهلاً وسهلاً ..

ـ اتأتين .. انا في انتظارك ..

ـ سآتي يا عامر .. الى اللقاء ..

اغلقت سمر الخط وهي تستند بجذعها الى الجدار .. خشية السقوط .

لقد هزتها المفاجأة .. وسالت الدموع صامتة على خديها .. اهي دموع الفرح ام الالم .. إنها لا تدري ؟ ..

ـ كيف تذهبين يا سمر وانت مريضة ؟ ..

ـ سأذهب يا سهام .. ولو لفظت روحي هناك .. بين ذراعيه هذه اعز امنية اتمناها .. ان تنطفىء جذوة حياتي مع طلة وجهه ..

ساعدتها « سهام » على ارتداء ثيابها .. وزينتها .. واوصلتها الى تاكسي يقلها اليه ..

رحب « عامر » بها وهما يدخلان الغرفة ..

انها غرفة اخرى غير السابقة .. وطالعها نور خافت وضع على الطاولة .. وعلى الجدران صور عديدة في الستائر الكثيرة المسدلة .. وفي الزاوية وضعت خزانة للثياب .. وفي الجانب الآخر مدفأة تشتعل ، امامها كرسيان ..

وجلست سمر ..

ابعد مرور تلك الايام القاحلة ؟ تراه امامها .. كانه لم يغب عنها .. كلامه .. نظراته .. حركاته .. كانها البارحة كانت معه ! !

كيف لا يشعر بمرور الايام التي تفرقهما ؟ .. وهي التي تذوي وتتعذب كثيراً .. من بعده

لقد كان معها إنساناً عادياً .. لم تخلف له الفرقة اي حنين يبعث في كلماته الشوق ..

كانت سمر عطشى الى كلمة ..

كلمة واحدة .. كلمة شوق تفجر انوثتها .. لكن كلماته سكبت الجمود في اعماقها ..

احست بخيبتها .. بمرارتها ..

كبتت عبراتها وهي تعاتب زوايا الغرفة والبيت .. لمَ خدعتها تلك الزوايا ؟ .. لمَ وهبتها الحب والسعادة في يوم مضى .. وعاد هو يسكب الصقيع في اعماقها ..

يا لتفاهتها ؟ ! ..

كيف احتملت قوله :

ـ انا احب « سهام » صديقتك .. احبها منذ زمن بعيد .. وسياتي يوم اتصل بها ..

افهميني جيداً .. لا تكوني إنسانة عادية.. تافهة .. ستخسرين كثيراً من قيمتك عندي اذا اعتقدت بذلك الحب العذري المراهق .. الحياة متعة .. ودقائق يمضيها الإنسان .. لندع كل شيء يمر بصورة عفوية .. الآن اعيش معك لحظات سعيدة .. اقبلك .. واضمك .. واتكلم معك .. لكن هذا .. لا يمنع ان اعترف لك اني الى الآن لم اشعر بحب لك ! ! ولست ادري اذا كان سيولد في يوم من الايام ..

ثم كرر ..

لا تكوني تافهة .. الحياة متعة .. وانت نفسك عليك ان تتمتعين بكل ما يهبك الزمان ..

لا .. لا .. لا تحاولي إقناعي باني الوحيد في حياتك .. فان كنت كذلك ، فانت انسانة عادية .. تخسر قيمتها عندي اذا كانت هذه آراؤها ..

وغمغمت سمر ..

يا لتفاهتي ! .

إنسانة عادية لاني احبه لوحده ؟ .. ولن اكون عادية اذا احببت عشرة رجال معاً ؟ .

تافهة اذا كنت صادقة مخلصة ؟ .. ولن اكون تافهة اذا غدرت بالكل معاً ؟.

تافهة اذا كنت احبه واذكره في كل دقيقة وثانية تمر عليّ ؟ .

تافهة لانى معه كل ليلة .. ومع هتافي اليه .. كأني في معبد اقدسه ؟ .

تافهة لاني اتمنى في كل لحظة ان اسمع رنين صوته في اذني ؟.

تافهة لاني تناسيت ظروفه وزوجته ؟ .

تافهة لاني اضحي بسمعتي ومستقبلي .. واجيء اليه طائعة راضية ؟ .

تافهة . . . . .عادية . . . . . . تافهة . . . . . عادية . . .

فكيف اصبح شيئاً في نظره ؟ ..

شيئاً يقدسه ويرعاه .. ويعجبه ..

كما تريد يا « عامر » .. ساصبح شيئاً في نظرك .. وستريك الأيام ذلك ..

* * *

لقد كانت « سمر » تدفع للقياه ثمناً فادحاً .. وهي الواثقة ان الفناء والعدم الذي ينتظرها يعادل الدقيقة التي تقضيها في التطلع الى وجهه ذاك الوجه الذي يابى ان يبارح مخيلتها لحظة ..

ولو كان الفناء والعدم في الموت فما ارحمه ؟

لكن فناءها هو ضياعها .. وضياع سمعتها التي قدمتها له هدية رخيصة .. منذ زمن طويل ..

دارت الدنيا بسمر وهي تتلمس جبهتها .. تمسح حبات العرق التي تنزت من جبينها . . اذ اضاف قائلا بعد ان احاط كتفيها كعادته . .

ـ انا الآن معك .. لكن هذا لا يمنع ان اكون غداً مع سواك .. لقد هزتني عينا موظفة عندنا اليوم بهزة حب .. لو كنت شاعراً لنظمت لها قصيدة .. ان في عينيها جمال وبراءة ..

وتمتمت أعماق سمر :

ـ في عيني عبادة اما استشففتها ؟ .. ام تمل ما تحصل عليه دوماً ؟ ؟ ..

ثم اضاف :

ـ انا صريح معك يا « سمر » ولو آلمتك صراحتي .. لكنني اشعر براحة عميقة وانا اقول لك كل ما في قلبي ..

ـ قل ما تريد يا « عامر » فانا اتقبل منك اي شيء ..

نظر اليها وهو يحاول أن يستشف وقع كلماته عليها .. لكنها كانت اغلق من أن يرتسم على محياها ما تشعر به في اعماقها ..

لقد اخفت عنه أشياء كثيرة .. وآلاماً كثيرة .. فلمَ لا تخفي عنه ما بها الآن ؟ من وقع كلماته .. وهي التي كانت تشعر في كل مرة تراه فيها بأنها لن تراه ثانية ..

فلتعتبر لقاءها هذا وداعاً ..

وداع منه ومن الحياة ..

الا يحق لها ان تختزن آخر ذكرى منه .. ليت انفاسها تقف الآن ؟ ! ليته ما فجعها في آمالها الغافية .. وفي قيمة حبها الذي اعتقدت انها وادته مع الايام في حنايا ضلوعها .. حاراً لا هباً .. مقدساً فاذا به حب خائب .. وامل ضائع ..

كانت تجد له العذر في غيابه لانشغاله بزوجته .. اما ان يحب سواها .. ويهتز لسواها .. فهذا ما لم يكن يخطر في تصوراتها ! !

ما اغباها ؟ .. وما اسخفها ؟ ..

لقد اعترف .. اعترف صادقاً بكل مشاعره .. وحبه ..

واستسلمت « سمر » الى يديه وقبلاته .. وهي توهم نفسها بانها لم تسمع منه شيئاً ..

حقاً ! ان الرجل متقلب في حبه .. وعواطفه ؟ ! ..

ايبغي حباً غير هذا الحب الجارف الذي وهبته له ؟. والذي كانت معه طيعة صاغرة لمطالبه ؟ .

حاولت « سمر » جاهدة ان تغلف نفسها معه .. لئلا يشعر بما يعتمل في باطنها .. ولم تفق الا حين ودعته وهي تضم اصابعه بين يديها وشفتيها.. لآخر مرة .. وخرجت.. ولفتها ظلمة الليل..

سارت بخطوات عليلة واهية .. وهي تفكر :

ـ لا يحبني .. وما احبني يوماً .. كيف خدعت ؟ .. كان يتلهى بي في دقائق ماجنة يقضيها معي .. وانا التي كنت ادفع مصيري ثمناً لتلك التسلية العابرة ..

مع ذلك احبه .. سأبرهن له اني لست تافهة ولست إنسانة عادية ..

كيف اكون تافهة وقد احببته ؟

كيف اكون عادية وقد عشت معه لحظات ..

ساريك يا عامر اني لست تافهة ولا عادية ..

ساحبك حسب طريقتك .. ساعيش مع الكل بعفويتي كما عشت معي بعفويتك !..

وستكون انت من بين اولئك الذين ساعيش معهم اوقاتاً .. حلوة ..

دخلت سمر منزلها .. وقد هرعت سهام تحتضنها ..

ـ ما ذا بك يا « سمر » ؟ ولمَ هذا الشحوب المروع ؟ ..

ـ لا شيء ياعزيزتي ؟ لاشيء انني احبك رغم كل شيء ..

ـ ماذا ؟ .. افصحي .. لم افهم معنى حبك الآن لي .. تكلمي ماذا قال لك ؟ .

ـ لا شيء ابلغك حب عامر لك ..

ـ ماذا تقولين ؟ . وما دخلي انا بينكما ؟ ..

ـ هكذا قال .. يحبك ويحب آلاف النساء معك ..

ـ امن اجل هذا دعاك ؟

ـ دعاني ليصحيني من احلامي .. دعاني ليبث فيَ كيف اعيش .. دعاني ليحيا معي وقتاً مسلياً .. دعاني بعفوية كما يدعو غيري .. ليته تركني غافية عن هذا .. ليته تركني مع اوهامي بانه احبني يوماً ما .. رغم آلامي يا سهام .. احبه .. احبه .. اتفهمين هذا ؟ .. اتدركين معنى ان تحبين انساناً حتى الموت .. الآن احببت مرضي .. احببت وحدتي .. وانا انتظر نهايتي ..

سالت الدموع مع كلماتها على خديها تمسح آثار قبلاته عليها ..

ستجعلها خدوداً لكل انسان.. لكل من يريد أن يطبع قبلة عليها..
وصمتت « سهام » متألمة لتلك المسكينة المفجوعة في كل شيء..
في حبها .. في ذكرياتها .. وفي صحتها ..

* * *

قالت « سمر » حين جاء اخوها يسألها عن حالها :

ـ لقد تحسنت كثيراً .. أين تذهب الليلة ؟ .. أريد أن أسهر معكَ يا اخي .. أريد أن أرى الحياة .. أن أودع الحياة ..

وفي المساء .. كانت مع اخيها في حفل راقص مع عدد كبير من أصدقائه .. بينهم « عادل » الذي أعجب بهـا مرة وأراد أن يخطبها ..

وهمست « سمر » :

ـ عادل ! الا تريد أن ترقص ؟ ..

ـ هيا بنـا ..

رمت سمر جسدها بين يديه .. وقد استجابت لضمته القوية.. ووهبته خدها للمس خده .. اذ تمشت الرعشة بين جوانحه .. وتمشت الراحة في أغوارها ..

ـ لقد أصبحت انسانة ذات قيمة لدى عامر .. سأعيش كما يريد .. سأتخلى عن تفاهتي ..

مع تلك الحياة الجديدة فارق المرض « سمر » .. فارقهـا لانغماسها في أجواء تناست معها ما كان يتعب قلبها .. وتفكيرها.. وتكررت أمسياتها هذه .. وتكرر معها تماديها في طريقها هذا.. وتمادى بها الزهو :

ـ هذا ما اراده « عامر » .. لقد ارضته .. وارضت قلبها لأنه يحبه ..

وفي ليلة ..

قبلت فيها الزواج من عادل ..

وتزوجته ..

ومرت الأيام .. هانئة رضية .. في اعماق الماضي ذكريات تناستها « سمر » .. وتناست معها عامراً .. لم يعد ذكره يصيبها برعشات .. وحنين .. لقد اصبحت انسانة ثانية .. انسانة عرفت الحياة جيداً .. عرفت كيف تنظر الى الحب .. وكيف تعيش ! ..

وصادفت عامراً في يوم « اثنين » حين نظر اليها .. وكأنه يتذكر اين رأى ذلك الوجه ؟ ..

فاقتربت منه :

ـ سلامات يا عامر ..

ـ أهلاً .. وسهلاً .. قالها بتساؤل ؟ !

ـ الا تذكرني ؟ .. الا تذكر سمر ؟ ..

ـ سمر ؟ اهلاً وسهلاً .. اين كنت طوال تلك الايام ..

ـ كنت اطبق مبادئك التي غرستها فيّ .. كنت في يوم مضى لكَ يا عامر .. كنت احبك .. واليوم .. اليوم اصبحت امراة .. امراة فعلاً كما يقولون .. امراة تعجبك ..

امراة ليست عادية .. وليست تافهة ..

لقد لقنتني مبادىء الحياة حين كنت غافية عنها ..

علمتني كيف احيا ..

علمتني كيف اكفر بالحب .. واتفهم الغاية ..

لقد اصبحت امراة ناضجة .. امراة غرست فيها افكارك لكنك خسرتهـا ..

لم تعد العيون الوالهة تسكب في شيئاً ..

لم تعد ايامك تعني لي سوى ايام عشتها وانا جاهلة الواقع ..

لم تعد الكلمات المعسولة تعني لدي شيئاً ..

لقد عرفت الحقيقة .. وفهمتها ..

ودعت « سمر » «عامراً» بنظرة اخيرة .. حين كانت الدهشة تعانق وجهه .. وشيء من الحسرة يسري في جنباته !!

الحسرة على ماض بعيد طوته الأيام ..

* * *

الليل .. الليل ..

ما اقساه ! .. وما اطوله ! ..

ما ابطأ دقائقه التي تمر كدهر طويل .. طويل ..

تجثم على الصدر جامدة لاتتحرك .. كأن ركبها مشلول الحركة ..

الليل .. الليل ..

فيه الجمال .. وفيه الحرمان .. فيه السعادة .. وفيه الشقاء ..

فيه الفراق .. وفيه اللقاء ..

لمَ هذا التلون يا ليل ؟ .. لمَ .. ؟ لمَ .. ؟ ..

الا تشفق على لهفة ذلك الخائف من طلة فجرك ؟ ..

الا تشفق على عذاب ذلك المنتظر نهايتك ؟ ..

الا تعدل بين الاثنين ؟ ..

فتهب الأول شيئاً من الراحة .. وتهب الثاني شيئاً من الرافة ..

معك يا ليل تصفو مشاعري .. ويذوب حقدي ..

مع هدوئك اهدأ .. مع صمتك أصمت ..

ولكن .. اليس للصمت لسان يتكلم ؟ ..

لسان في الاعماق .. يحاسب ويناقش ويحكم ..

معك يا ليل نهاية شقاء اليوم .. حين تستيقظ اغواري لتحاسبني ..

لمَ شقيت ؟ .. لمَ تعذبت ؟ .. وبعد .. لم سعدت ؟ ..

معك ياليل تستيقظ ذكرياتي بعد ان غفت ! .. وقد خلق هذا الجسد المسجى لينسى .. ويهدأ .. ويرقد .

فلمَ لا ترقد معك مشاعري واغواري ؟ ..

لقد كان نهاري قلقاً ياليل .. ولا أعلم لذلك القلق سبباً ..

لقد كانت نقمتي صامتة ..

نقمة على الحياة .. على الإشراق الذي يعكس الضنى على النفس ..

نقمة صامتة ! .. لأن الأعماق تتمنى الكثير .. من مشاريع واشياء تريد الحصول عليها وما تحققت ! ..

قلق .. نقمة .. ضياع .. امنيات ..

وفي مساء ذلك اليوم ياليل قادني ذلك الاضطراب الى جولة أقوم بها في الطرقات .. علَ ذلك الرذاذ الذي انتشر مع المساء يمسح شيئاً عن نفسي ..

سرت .. وسرت .. كلت قدماي وانا اتفرس في الوجوه .. فما رايت وجهاً مشرقاً .. كل ما رايته ولاحظته .. كآبة خرساء تلف تلك الكتل البشرية المتنقلة في الطرقات .. حيرى .. مثلي ..

اقترب مني فتى يقارب الخامسة عشر .. حين امتدت يده تطلب .. وفي عينيه استرحام يقطر ..

ونظرت اليه .. ورأيت فجر ايامه شقاء في شقاء .. يجوب الطرقات ليستجدي العطف والهبة من الناس .. ما أشبهه بنفسي .. الست اطوف الطرقات استجدي من الهواء والطبيعة والرذاذ .. شيئاً من الراحة والسكينة ؟ ..

نقدته بعض المال .. حين شملت الفرحة عينيه .. وكسا البشر وجهه ..

وابتسمت له .. وسرت ..

سرت وانا اشعر بكآبة تغلف انطوائي .. الست مثيلته ؟ ..

لا اجد من يهبني ما اطوف بسببه . .لا اجد من يمد يده ليسمح عن نفسي ما يعذبها ..

كلنا فقراء .. فقراء الى السكينة والاطمئنان ..

وقفت انتظر الباص .. فاذا بالناس تتزاحم لتحتل عدة مقاعد .. ويسير الباص ويأتي الآخر .. وانا انتظر .. ومثلي الكثير ينتظر ..

فدلفت الى سيارة قبعت بجانب الرصيف .. ينادي سائقها « سرفيس » بربع ليرة .. ولم يستمع لندائه إنسان ..

لقد كان في نظراته استجداء ونقمة .. وهو يتقدم ويتأخر بسيارته .. يسترحم الواقفين بصمت .. وما من مجيب ..

وانتظرته قابعة في السيارة وتصورته يقولي لي :

ـ اعملي معروف انزلي .. لن اسير بربع ليرة ! .

لكنه سكت وقدرت فيه هذا السكوت حين سار ..

سار .. وهو يكبت الثورة في اعماقه .. سار بي وحدي .. وبسرعة عجيبة يتلوى بسيارته بين الطرقات والسيارات والباصات ..

ووصلت الى المكان الذي اريد النزول فيه اذ قلت له :

ـ هنا من فضلك ..

فأوقف السيارة .. واستدار ليأخذ مني ربع ليرة ..

ربع ليرة فقط لطريق طويل ! ..

وامتدت يدي اليه .. بليرة سورية واحدة .. حين نشطت اصابعه في حافظة نقوده ليرد لي الباقي .

فتحت باب السيارة وانا اقول :

ـ دع الباقي .. لقد اوصلتني لوحدي ..

قال :

ـ لا .. لا .. وماتت الـ « لا » الثالثة على شفتيه حين قلت له:

ـ دع الباقي .. شكراً ..

وانسللت الى الطريق .. ودهشة شاملة تطل من عينيه .. وفم مفتوح .. حائر .. لا يدري ماذا يقول ؟ .. لقد كان الشكر ينطق من قسماته .. وهو مذهو ل من المفاجأة التي عقدت لسانه ..

وسرت .. سرت الى صديقتي وانا اشعر ببعض الراحة .. لاني وهبت انساناً .. ما يريد ..

سرت ياليل وانا افكر ..

لو ندرك فعل قطرة الندى بين اوراق الزهرة الذابلة .. لصببنا القطرات ..

لو ندرك قيمة « الفرنك » لدى المحتاج اليه لما اخفيناه .. وخفنا عليه ..

ماذا علينا لو اسعدنا الغير .. طالما نفتقر الى السعادة ؟

الا تعكسها لنا الأيام في راحة تشمل ضميرنا ووجداننا ؟

لو فكر كل انسان باستفادة غيره من عمله بدل ان يفكر باستفادته هو ؟ ..

لو تخلى الكل عن كلمة انا .. لوهبنا بعضنا الكثير ..

واستقبلتني صديقتي ..

كنت قلقة .. مكتئبة .. ورايتها مثلي .. مكتئبة .. حائرة ..

لقد كانت في حزن والم دائم اعرفه فيها ..

ونصحتها بكلمات خرجت من فمي واهية .. لاني كنت احوج منها الى النصائح .. لكآبتي .. وقلقي الدائم ..

لقد كنت اجد العذر لحزنها .. ولو الى حدٍ ما .. اما هذا الحزن الذي يصادق نفسي دوماً .. لا اجد له سبباً ولا عذراً ..

لقد كنت اريد شيئاً لا اعرف ان احدده بالضبط .. اريد اشياء واشياء ..

وما اكثر امنيات الانسان واحلامه ..

ولمست صديقتي الوجوم في قسماتي وفيما وراءها ..

وسالتني السبب .. وتمنيت ان اغسل نفسي من ادرانها بين يديها لكنني احجمت ..

وامتد بنا الحديث ياليل .. امتد الى امان اتمناها .. واحلام تتمناها .. ووصلت الى مشروع يداعب خواطري دوماً ..

ولمسته صديقتي امنية غالية في اغواري .. ثم غابت عني لفترة عادت بعدها تفرش امامي النقود من فئات المئة .. وقالت :

ـ خذي ما تريدين يا صديقتي لمشروعك هذا ..

ووجمت .. وجمت انظر اليها .. وانا غير مصدقة .. وحارت الكلمات في فمي ..

ثم قلت :

ـ ما هذا ياصديقتي ؟ .. لا لا .. لا اريد .. اشكرك

قالت :

ـ خذي ما تريدين .. لمَ استنكف عن مساعدتك .. طالما في وسعي ذلك ..

لقد هزني عملها هذا .. هزاً .. لقد اسكتني نبلها ..

لقد اثرت فيَ طيبتها .. وثقتها ..

لقد اراحتني بسموها من قلقي .. وعذابي ..

ودسّت في محفظتي المئات وهي تبتسم .. ابتسامة ناعمة حلوة ..

وسالت عبراتي .. عبرات الشكر .. وخلت ان الدنيا فارغة..

فارغة من الكلمات .. من اي شيء يمكن ان يعبر عن مشاعري في تلك اللحظة ..

تمنيت ان اضمها الى صدري .. ان اغسل يديها بدموعي .. وان اغسل نفسي من شوائبها .. باخلاصها هذا ..

وعدت ياليل .. عدت اليك لاضمك وتضمني ..

ترى ما اسعدنا لو فكر كل منا بأن يعمل عملاً من اجل الآخرين؟!

ماذا لو كان الكل مثل صديقتي هذه ؟ ..

عدت ياليل .. وفي اعماقي مشاعر تموج .. ومشاعر تسعد النفس ..

يا صديقتي .. ثقي تماماً ان كل كلمات اللغة لو رصت مع بعضها البعض لا تكفي لتسجيل كلمة شكر لك ..

يا صديقتي .. لو جمعت عواطف البشر جميعاً في عاطفة واحدة .. لا تكفي للاعتراف بجميلك هذا ..

يا صديقتي .. انت اسمى من ان تسمى صديقة فقط ..

انت ملاك .. واسمى من ملاك ..

يا صديقتي .. لقد وهبتني كل الأمل .. وهبتني شيئاً كبيراً .. كبيراً ..

اكبر مما استحق ..

شيء يسعد نفسي .. يسعد روحي .. ينعش امنياتي الضائعة هباء ..

لقد حققت لي ما تمنيته طيلة حياتي .. ساعدتني في عمل كان حلماً في ايامي وليالي ..

وكان شكري ياليل .. كان دمعات ساخنة جرت على خدي تمسح عنه شحوب الخريف وبكاء الشتاء ..

وتدغدغه بآمال الربيع ونسيمات الصيف ..

وعدت ياليل .. عدت اليك لاضمك وتضمني .. واضم اسراري معي ..

* * *

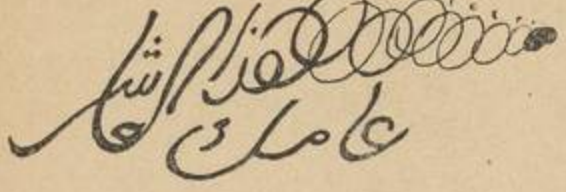

هل تنسينا الأيام شخصاً عزيزاً رحل ؟ ..

منذ زمن بعيد .. أو قريب ؟ ..

هل تنسينا الأيام ، حبه وذكراه ؟ ..

بعدما اصبح يحدق في النور بعينين جامدتين .. او بعدما اصبح حطاماً تحت التراب ؟ ..

هل تنسينا الأيام .. ذكراه ؟ .. في قلوبنا ؟ .

طالما فيها عرق ينبض بالحياة ..

كلا ! ..

فما في الحرمان الا قوة .. قوة الحب التي كمنت في زوايا الضلوع ..

ثم عادت تتمثل ذكرى .. وحنيناً شاملاً ..

فلتمر الأيام .. ولتقس الليالي .. فذكراه ستظل ابد الدهر في القلب ..

* * *

هذا عامك العاشر يا والدي .. وانت تتوسد طيات الثرى .. ويضم جسدك التراب ..

وهل بقي لك جسد تحت التراب ؟ ..

لقد افنته الأعوام .. والأيام .. والليالي ..

يا لذكراك الباقية في الأغوار ابد الدهر ؟ ! ..

هيهات لتلك الأعوام محوها من القلب والذاكرة ..

قبل عشرة أعوام يا ابي ..

في مثل هذا الشهر .. جاءني زوجي قائلاً :

لقد طلب اهلك اخي « الطبيب » .. فلماذا يا ترى ؟ ..

وكنت مع زوجي على مائدة الطعام .. واللقمة في طريقها الى الفم ..

وتعثرت يدي .. وضاعت اللقمة .. اذ وجمت ..

وجمت يا والدي انتظر من هو المريض منكم ؟ ..

وكان المريض .. انت ! ..

نعم ! انت .. الذي ما رايتك يوماً تشكو من مرض !! ..

الانك كنت صحيح الجسم ؟ ..

كلا ! .. لقد كانت بك أوجاع عديدة .. لكنك كنت صبوراً .. وحمولاً ..

كنت أميّز مرضك من انزوائك في غرفتك .. وانت صامت .. زادك الحليب فقط ..

اما وقد طلبت الطبيب .. فهذا مالم المسه منك ؟ ! ..

ودق ناقوس الخطر في أغوار نفسي .. وكان يوم « جمعة » ..

هرعت اليك مع الطبيب يا ابي .. ورايتك .. مسجى تتلوى من الالم .. والانين يندفع من فمك خافتاً متلاحقاً ..

وارتميت على جسدك اتحسسه ! .. واتلمس يديك ..

ورفعتَ يداً .. حانية .. هدها الالم ، تتلمس شعري .. وتسكب فيّ ما تبقى لديك من شجاعة .. وصبر .

* * *

ونقلوك الى المستشفى يا ابي ..

وكانت « عملية » صعبة .. عمليـة انقاذ حياتـك من مرض خبيث .. فظيع .. « السرطان » ..

هيهات لمهارة الاطباء .. وفعل مشارطهم .. استزادة يوم في عمرك ؟ ! ..

وكان يوم « الجمعة » الثاني .. يوم وفاتك يا ابي ! ..

ثمانية ايام لا غير ؟! لم يمهلك المرض اكثر منها ؟! ..

يا لذكرى ذلك اليوم يا ابي ؟! ..

انها خالدة في اعماقي مع خلود الروح ..

فبفقدك فقدت كل شيء .. ووجدت نفسي بعدك ، صورة مصغرة من خصالك وطبائعك !! ..

كل يوم يمر عليّ .. من ايام اعوامي العشرة .. اذكرك فيه .. يا ابي ! ..

اذكرك في صبرك .. وصمتك ! ..

في احتمالك وشجاعتك ؟ ..

ما سمعتك يوماً .. شاكياً ولا باكياً ..

ما سمعتك تتكلم عن انسان بسوء ..

لقد عشت تحتمل كل ما يلم بك من مصاعب .. ومصائب .. ومرض ..

اما اورثتني كل هذا يا ابي ! ..

اورثتني الاحتمال والصبر .. والشجاعة التي تحفزني دوماً لان انهض من كبوتي ، اكثر عزماً على المضي فيما قررت السير فيه ..

كيف انسى طفولتي بين يديك ؟ .. يا ابي ! ..

عندما كان المساء يزحف .. وكنت تسوقني الى سلمنا الخشبي، وانت تردد لي اغنيتي الخاصة ، التي كنت انشدها قبيل النوم .. والأحرف تخرج من فمك .. مقلداً فيها كلامي الصغير .. ولساني الناقص ..

ثم نصعد السلم درجة .. درجة ..

انا امامك .. وانت ورائي .. الى ان تسلمني لاحضان السرير .. والكرى ..

وتعود راجعاً بعدما تطبع على خدي قبلة النوم ..

لقد زينت لي طفولتي بين يديك باحلى مظاهرها ..

ما كنت ادرك يومها .. مصاعب الحياة .. والحرمان ممن زرعوا في نفوسنا بذور الهناءة ..

لقد زينت لي الحياة .. وذهبت ..

ليتها تزهر ساعة .. الآن .. كأيامي معك ..

ومرت الايام .. وكبرتُ يا ابي .. وغدوت فتاة السادسةعشر ..

كيف انسى الإطاعة التي زرعتها في قلبي يا ابي منذ ذلك الوقت .. حين حذرتني مرة من احدى رفيقاتي ..

كنت ترتضي لي الخير ! ..

لكني لم آخذ بنصيحتك !! .. وذهبت ازورها ، ضاربة برايك عرض الحائط ..

وعندما عدتُ .. وجدتك تنتظرني غاضباً .. وامتدت يدك الى خدي .. تصفعه .. لاول مرة ..

نعم .. صفعتني .. لانك قلت نصيحة صادقة .. ولم اسمعها ..

لقد علمتني صفعتك هذه .. معنى الطاعة والاستسلام لمن هو اكبر مني ..

لقد غرست فيّ .. حب الرضوخ والاحتمال ..

الصمت والتفكير .. وغرست فيّ الصبر قبل كل شيء .. الصبر في المرض .. وفي الألم .. الصبر على ظلم الأيام .. وسهد الليـــالي ..

كيف لا اذكرك يا ابي كل صباح ..

وقد كنت عودتني ان تاتيني باكراً .. بردائك الناصع البياض .. لتراني وتسكب فيّ الحب والحنـــان .. من عينين صافيتين .. اطبقت جفونهما الى الأبد .. منذ زمن طويل ..

حتى الآن يا ابي .. لم اجد ما وجدت فيهما من معنى سام نبيـــل ..

كيف لا اذكرك ؟ ..

لقد فقدت بفقدك عطف الكل ..

لقد صدق من سمى « اليتيم » من فقد اباه فقط ..

كيف لا اذكرك ؟ .. وقد وجدت امي بعدك ذابلة العود .. والروح ..

لقد تبدلت كثيراً .. منذ ان فارقتها يا ابي ..

اعوامها العشرة .. غدت بعدك .. مئة .. !

لقد اذابتها الايام وصهرها عذاب الليالي .. لقد غدت كتلة بشرية .. تسير .. دون ان تحس او تشعر ! .. اين ضحكتها يا ابي .. اين صحتها ؟.. اين ذلك الإشراق الذي كنت تسكبه في روحها ؟ اين مداعباتك .. ومناغاتك لها ؟ ..

لقد كنت احب الحب عندما اراكما ! .. كم كنت تحبها يا ابي .. وكم كنت تخاف عليها ! ..

لمن خلفتها يا ترى ؟ ..

اللحسرة التي اكلت منها الجسد ؟ .. ام للذكرى التي اذوت منها النفس ؟ ..

تركتها للوحدة تضنيها .. للآلام ترعى فيها .. كم اتالم من اجلها يا ابي ! ..

لانه لم يعوضها انسان عنك .. كما لم يعوضني انسان عن حنانك ..

* * *

ابي ! ...

لو تمر على وفاتك عشرات السنين .. فذكراك هنا .. في القلب والنفس .. محفورة بأحرف من نار ..

بين الضلوع ..

لهيبها يشتد .. ويشتد .. حتى تخبو الروح .. وتخبو معها تلك النار .. نار ذكراك ..

* * *

« سكونك يا ليل يعذبني .. والوحدة تضنيني ..

من هدوئك عرفت معنى السهاد .. ومن وحشتك ذقت مرارة الفراق ..

مع صمتك الذي يلفني .. وفراغك الذي يغلف قلبي ..

مع سحرك احببت « سامراً » .. وبين طيات ظلماتك ، اقترب مني وكلمني ..

وكان وعد .. وكان لقاء ..

لقاء معك يا ليل ومع « سامر » ..

هل انسى يوماً رعايتك لي ، وانت تخفيني بين مطاوي الطرقات؟. متسللة لبيت « سامر » ! ! ..

لالقاه ! .. لاسعد معه لحظات من العمر معدودة ؟ .

هل انسى اجنحتك المنشورة في غرفتنا معاً ؟ ..

هل انسى ظلامك ياليل وانت تعكس لي فيه وجه « سامر » الحبيب .. مع ومضات النجوم .. المتسللة من الستائر المسدلة ؟..

هل انسى انفاسه اللاهبة تلفح خدي ؟. وهمساته تنسكب مخدرة في سمعي ؟ ..

انك معي يا ليل .. تنقلها لي كل ليلة .. يا لك من ظالم قاس ؟!

الا تدعني غافية عن الذكرى ؟ ..

تأتيني وطيف « سامر » تعذباني كل ليلة .. وتغادراني وقد اضنيتما مني الجسد .. واذويتما الروح .. تاركين الأنات تملأ فضاء غرفتي .. مرددة ..

الى متى هذا السهاد ؟ .. »

وقفت « سلمى » عند هذا الحد في قراءة مذكرات هيفاء ؛ التفتت اليها مع الدهشة التي تطل من عينيها :

ـ ما هذا يا هيفاء ؟ .. اتحبينه بهذه القوة ؟ .. يا للغرابة ! ..

اجابت هيفاء :

ـ احبه يا سلمى .. هو طيفي الذي يرافقني اينما حللت ! .. هو قطعة من نفسي .. هو روحي .. هو انفاسي .. هو قلبي الذي تجري فيه الحياة ..

ولكن ما انكره على نفسي .. هو هذا الاستسلام المطلق .. لحبه .. لغدره .. لنسيانه وجودي .. وكوني مررت يوماً في حياته .. وجمعتنا عدة لقاءات ..

اتراه يشعر يوماً بالحنين ؟ .. ومتى ؟ .. والى متى يطول انتظاري ؟ ..

كيف ينسى ساعات وهبني فيها حب الحياة .. ولذة الوجود؟..

كيف ينسى همساته .. وارتعاشة شفتيه .. مردداً اسمي ؟؟.

كيف ينسى اضطرابه .. واتقاد عواطفه ؟ ..

كيف ينساني شعلة تستجيب لرغائبه ؟؟ ..

وسارت هيفاء وسلمى عبر الحديقة .. تعبّان من هواء الليل ..

لمعت نجمتان في السماء .. وتنهدت هيفاء :

ـ ليت آمالي كومضة تلك النجوم ! ! ..

وهوى شهاب مسرعاً !

اضطربت هيفاء ! ! .. قلبها يهوي كهـذا الشهاب !! .. انه « سامر » آت من بعيد !! ..

يا للصدفة الغريبة ؟! ..

سرت في أوصالها رعشة .. وتعثرت الاحرف في فمها لتقول :

ـ سلمى هذا هو ..

لكن سلمى راته وقالت :

ـ هذا هو « سامر » يا هيفاء ! ..

اقترب « سامر » مخترقاً الجموع المنتشرة في الحديقة .. وقد اتجهت نظرته الى سلمى ! ..

وكانت لفتة سريعة من راس سلمى تجاهلت فيها مروره ..

التقت عيناه بعيني هيفاء .. إذ هز راسه محيياً .. مع الخيبة التي شملت قسمات وجهه .. من تجاهل سلمى له ..

مر « سامر » مسرعاً .. لم يحمّل هيفاء سوى تلك الهزة من راسه .. دون ان يكلف نفسه عناء الابتسام لها .. كأنها لم تكن يوماً بين يديه حبيبة طيعة ..

اعترت هيفاء انفعالات شتى .. ولم تعد تقوى على الوقوف .. همست :

ـ سلمى .. خذي بيدي .. اني لا استطيع الوقوف ..

انصبت عليها لهفة سلمى :

ـ ما بك يا هيفاء ! .. لمَ هذا الضعف ؟ ..

وابتلعهما المنعطف الى الدرب الثاني ..

وشردت افكار هيفاء رغم آلامها مع « سامر » انه هنا ! .. معها .. في الحديقة .. يتنسم الهواء الذي تتنسمه .. بين الزهور .. ومع الليل ..

وانتت اعماقها :

ـ يا لقساوته ! .. يمر متجاهلاً وجودي .. كان الايام لم تفرقنا كثيراً ؟ ..

انَ طير على شجرة ..

رددت هيفاء :

ـ إنها انثى الطير .. تئن لفراق حبيبها !! .. انه مع انثى اخرى حتماً !! ..

عزفت موسيقى من البعيد ..

وتنالت انفاس هيفاء .. لقد عاد ! .. عاد « سامر » .. وعادت عيناها تبحثان عنه ..

تعثرت خطواتها ..

وشردت روحها مع ذلك الوجه الذي تمركز في خيالها لا يبارحه ..

اما هو ..

فيبدو ان عواطفه كانت مع سلمى .. لان نظرته كانت اليها فقط ..

حيته سلمى ..

اجابها مبتسماً والسرور بادٍ على مقاطع وجهه .. وعيناه مستغرقتان في التأمل في وجهها ! ..

مرّ .. بعد ان غاب عنه وجه سلمى !! ..

مرّ .....

كان هيفاء لم تكن امامه !! .. وبجانب سلمى !! ..

اما هيفاء .. فكانت على سذاجتها في تقبّل كل ما يفعله « سامر » تتفرس في وجهه ..

هزتها رعشة شوق وذكرى ..

كانت فيها يوماً بجانبه .. يا لتبدل الزمان ؟! ..

ويا لتبدل الإنسان ؟ ! ...

وخيم صمت مطبق بين هيفاء وسلمى ..

طوت هيفاء جوانحها على آلام غزتها .. وكبتتها في اغوار نفسها ..

وماذا تقول ؟ ..

اتقول لهـا :

ـ في اعماق « سامر » حب لك يا سلمى ! ..

ويبدو ان سلمى قد صمتت ايضاً .. لتنفي عن افكارها .. وافكار هيفاء ما لمسته من اضطراب « سامر » .. وهي التي تعلم علم اليقين مدى حب هيفاء له ..

الحديقة تضج بالناس !! ..

همسات وضحكات تدوي في آذان هيفاء .. تمتزج مع صمت سلمى ..

اتراهم حقاً سعداء ؟ .. ام مثلها تنزوي الحسرة والكآبة بين طيات نفوسهم ... وتغلف الآلام قلوبهم المعذبة ؟! ..

* * *

تسمرت قدما « هيفاء » امام صورة زوجها الراحل .. حين عادت الى البيت ..

زوجها الذي مات وخلفها وحيدة في الحياة تعاني المرارة والحرمان ..

وانسلت الى فراشها .. واحتضنتها ذكرى المساء ..

ذكرى تحية « سامر » لها .. ونظرته الى سلمى !

إنه رجل ؟! ..

والرجل لا يعرف القناعة في حبه .. لا يعرف الاكتفاء ولا السكينة لامراة واحدة ! ..

لقد وثق من حب هيفاء .. فلمَ يبحث عنها ؟ ..

هي التي تزحف اليه لاهثة راضية .. تتمنى من عينيه نظرة .. نظرة تختزن فيها شيئاً من الهدوء والراحة ..

إنه يبحث عن سلمى التي لم يحصل على حبها بعد !! ..

ما اغرب وقائع الحياة !! ..

اكتب عليها هذا الحب البائس .. والعذاب المفزع ؟ ..

هل في الوجود افظع من أن تحب إنساناً لايحبك ؟ او لا يوليك شيئاً من الاهتمام ؟ ..

ومضى ليلها في سهاد ! ..

واعتاد السهاد مصاحبتها .. منذ ان عرفت « سامراً » ..

« سامر » الذي احبته بكل جارحة فيها .. وخدعت يوماً بحبه لها ..

من صرعها اسيرة عينيه ! .. من اقترب منها مخيراً لا مسيراً .. وتواعدا على اللقاء ..

اتراه كان يعتبرها تسلية عابرة ؟ ..

عاشت هيفاء لحبه ولقائه .. ووهبته من نفسها ما أراد ..

لقد تسلل الى حياتها .. وملك وجودها .. وذاقت الحب منه في اويقات ، غفا الزمان فيها عن حرمانها .. وعذابها ..

لقد اغترفت الحنان من عينيه .. بحراً واسعاً لا يعرف مداه!..

كيف تنسيها الايام لمسة يديه ؟ .. وهمس شفتيه ؟ ..

كيف تنسى إحساساتها المضطرمة .. وهو يضمها بقوة الحب النابع من الأعماق ؟! ..

وكيف كانت تستجيب شعلة متقدة لرغائبه ؟! ..

ما اغرب عواطف الرجل ! ..

كيف يستطيع نسيان ساعات لم تستطع هي نسيانها ؟! ..

كيف يستطيع محوذكراها من خاطره.. ويبيت هادىء البال؟..

الا تذكره صفحة خده بخدٍ لامسه متقداً محموماً .. يجري الدم فيه فوّاراً عنيفاً ؟ ..

الا توحي له جنبات غرفته بذكرى لقائها ؟ !..

اما سمع انفاسها تتردد ملتهبة مع انفاسه ؟ ..

الا يذكره بها ذلك المقعد ؟ .. الا تبرهن له هيفاء عن حبها واخلاصها .. بتضحيتها هذه .. حين كانت تأتيه متناسية ما وراءها لتسترق من زمنها معه ساعات حلوة .. لن تنساها ما عاشت من الأيام ..

كيف تنسى انسياقها في هذا الحب الذي حطّمها ؟ ..

كيف تنسى رشفات السعادة التي جرعتها قطرة قطرة ؟..

كيف تنسى تحفظها الذي ذاب وانصهر .. حين انطلقت نفسها على سجيتها ، التي كانت قد كبتتها الأيام والتي لم يلمس انطلاقها اي إنسان سواه ؟ ..

* * *

تملك هيفاء شوق جارف « لسامر » ..

نهضت من سريرها الى الهاتف تطلبه .. وجاءها صوته عبر الاسلاك .. وقد نسيت ثورتها ووجودها مع نبرات صوته العميق !.

ـ كيف سلمى يا هيفاء ! .. لقد كدت اتصورها تمثالا من الشمع بتحيتها الباردة لي ؟! ..

تغلغلت الإجابة في اغوار هيفاء .. المتألمة ! ..

كانت تود ان تقول له :

ـ الا تكفي حرارة تحيتك لها ؟! ..

وكتمت ما بها حين قالت مازحة :

ـ ما هـذا يا « سـامر » ؟! اين اصبحت انا .. ان اوليت اهتمامك لسواي ؟! ..

قال ضاحكاً :

ـ انت في قلبي ..

قبلت هيفاء جوابه بمرارة تعتصر قلبها .. وهي توهم نفسها بصدق ما اجاب ..

همس سامر :

ـ اتاتين الآن ؟ .. انا في انتظارك ..

صمتت ..

ومتى كانت ترفض له طلباً ؟ .. ولمَ لا تختزن ليلة اخرى لليالي حبها معه ؟ ..

لمَ لا تداوي جراحها .. وعذابها بلقاء آخر ؟ ..

ذهبت هيفاء ..

واستقبلها كعادته في فتور ..

لكم كانت تتمنى ان ترتمي بين ذراعيه .. تسكب الشوق الذي ارقها واسهدها ! ..

دخلا الغرفة التي كانت تشهد حبهما ..

وارتمت هيفاء على المقعد الطويل .. وارتمى بجانبها ..

وضمته اليها بقوة ..

وعاد إليها .. عاد حبيباً كله عاطفة صادقة .. وحب جارف ..

وأسكرتها كلماته .. واذابت عواطفهاالتي انسكبت حباً وعبادة.. تنبذ كل التقاليد والقيم والحدود ..

مرت لحظات هانئة على هيفاء ..

كيف لا تعيش على ذكرى نارها ، ما كتب لها في الوجود ..

طوال العمر ..

لكم تبدو تلك الكلمة بعيدة .. طويلة الأمد .. ونحن جاهلون متى تقف حدود العمر ! ..

ودعته هيفاء .. وانسلت الى الطريق بعد أن اغترفت آخر نظرة من وجه سامر ..

خرجت .. ولفتها ظلمة الليل .. حين دلفت هي في ظلمة نفسهـا ..

وسارت كالشبح الضائع ..

إنها هناك .. مع « سامر » .. الذي تركته في غرفتهما ! ..

* * *

دوى صوت بوق سيارة تقطع الطريق مسرعة ..

ولم تسمع الصوت هيفاء ..

لقد كانت مع همسات « سامر » وقبلاته المحمومة وهي تسائل نفسهـا ..

متى تراه ثانية ؟؟ ..

وتلوى الجسد تحت السيارة التي سمع صوت ارتطامها بالجسد قوياً ..

لقد غدت هيفاء .. في لحظة خاطفة جثة هامدة .. تسيل منها دماء قانية .. وشفتاها مكورتان على بعضهما .. كأنها بدأت تصرخ « سامر » !! ..

ماتت وهي تترك « لسامر » ذكرى ستطمرها غبار النسيان .. وتجعلها ذكرى باهتة منسية ..

اتراه يشعر بالحنين .. ان مر ذكر هيفاء في خاطره يوماً ؟ ..

* * *

امتدت يد « سهاد » إلى بورقة .. وقالت :

اقرئي ما كتبت ! .. وقرأت :

« في عينيك غموض يحيرني ..

في عينيك حنان يدغدغني ..

في عينيك رفة تسكرني ..

في عينيك شرود .. في عينيك آلام .. في عينيك مشاعر حلوة ..

في الهدب رعشة حائرة ..

في الجفن ومضة سهاد ..

في النظرة حديث عتاب ..

في عينيك ذكرى ماضية .. هي أحلى ذكرى ..

من عينيك جمال الليل ..

في عينيك جموح الميل ..

من عينيك كل الويل ..

في عيني عبادة .. في قلبي انت .. اما عرفت ؟ »

قلت لها :

ـ ما هذا يا « سهاد » .. ومن هو ؟ ..

ارتسمت على وجهها اشباح الالم والذكرى .. إذ قالت :

ـ « لقد كان يحبني اضعاف ما احببته .. لكن قساوة الاقدار .. وغدر الايام .. قد جعلا منها ذكرى .. مجرد ذكرى ..

كان يقطن بجوارنا ..

وكنت الاحظه رجلاً .. هادئاً .. متزناً .. عميق الفهم والفكر ..

لن انسى نظرته العميقة المحببة .. عندما ابتدانا نتزاور .. وقدمته الي والدته :

ـ ابني « سمير » ..

طرقت بابهم يوماً .. اطلب موعداً لزيارتهم ..

كان وجهه الذي طالعني وراء فتحة الباب .. مشرقاً .. جميلاً .. فيه غموض محبّب ..

وانسكب صوته الهادىء في سمعي .. عذباً .. وهو يرحّب بي ..

تلعثم الكلام في فمي ..

ولاحظ « سمير » اضطرابي حين دعاني للدخول :

ـ اهلاً وسهلاً آنسة « سهاد » لقد انتظرنا زيارتكم منذ امد طويل ..

اجبته بكلمات متعثرة شاكرة .. وقد انبعثت من الداخل اصوات موسيقى ناعمة .. اسبغت كثيراً من الروعة على جو منزلهم ..

وتركزت عيناه عليّ .. فيهما إعجاب .. وعمق ..

رفرفت أجفاني خائفة .. من شيء مجهول .. بعيد ..

وافقت من استغراقي على صوت والدته .. وهي ترحب بي ..

كانت كلمات .. ومجاملات .. لم أعِ منها إلا موسيقى حلوة .. ونظرات هادئة .. وجواً لطيفاً ..

ودعتهم بعد ان أخذت موعداً لزيارتنا .. وفي اعماقي ترسب مشاعر غامضة ..

* * *

كان القلق يملأ الأيام التي تزحف ببطء الى الموعد ..

وجاء اليوم ..

جلست أمام المرآة .. اطيل النظر في وجهي .. وفي عيني .. وفي جسدي .. كيف التف الثوب عليه برشاقة .. وداعبت الفرشاة خصلات شعري .. ونثرتها على جبيني ..

كنت احاول بكل ما املك من براعة في ان اكون جميلة ..

نادت علي والدتي .. وسرت بخطوات مرتبكة ..

دخلت بيتهم .. كأني ادخل الجنة التي احلم بها ..

واستقبلنا «سمير» ببسمته المفعمة أملاً .. واستقبلتنا والدته .. التي احببتها كثيراً .. والتي اخذت تثني على جمالي .. وقد انعكست حلاوة كلامها في تعابير حلوة على وجه « سمير » ..

ثم دعاني الى غرفته .. ليسمعني شيئاً من الموسيقى ..

دخلت غرفته مضطربة .. وجالت عيناي في زواياها .. إذ

ركن في احداها سريره .. بجانب « كومودينا » عليها ضوء صغير .. وكتاب مرمي ..

لمحت عيناي عنوان الكتاب « الزنبقة الحمراء » .. ثم جلست على كرسي طويل مغطى باللون الاحمر الوردي .. انتحيت ركنه ، وقد طالعني وجهي في مرآة امامي ..

كانت الصفرة تشمله .. والانفعال يعلو قسماته ..

ـ اهلين وسهلين .. ما بك يا آنسة « سهاد » ؟ .. اتشعرين بشيء مزعج ؟ ..

غمغمت :

ـ .. اشكرك ..

ولعبت اصابعه بآلة التسجيل .. وانبعثت الموسيقى الكلاسيكية ثم اقترب .. وجلس بجانبي .. على الكرسي الاحمر الطويل ..

وصمتنا ..

صمت كل منا .. إذ راح يبحث بين طيّات احلامه .. عن اشياء يتمناها .. وكم تمنيت ان انفذ الى اغوار « سمير » واستنبط ما فيها من امانٍ واحلام ؟ .. ومع من ؟ ..

قال :

ـ آنسة « سهاد » .. لا ادري كيف اجرأ ان اطلب منك ان تزوريني .. فوجودك يسعدني .. فهل انت كذلك ؟ ..

أجابه صمتي .. وانفعالات الايجاب التي انعكست على قسماتي

لست ادري كيف نفذ بطلبه هذا الى اعماقي .. وعرف ما بي؟..

قال :

ـ شكراً .. ستأتين .. اليس كذلك ؟ .. ستزورينني كثيراً ؟. فوالدتي من أصل تركي .. وترحب كثيراً بالتقائنا .. لا تهمها أقوال الناس .. فالحياة عندها فرصة للسعادة يجب الا تضيع ..

وانسللت من غرفته مع انتهاء الزيارة ..

مددت يدي مودعة .. واحتضنها بين يديه طويلاً .. وهو صامت .. يسكب في عيني كل ما في عينيه .. من بدء عاطفة وإعجاب .. وحب ينمو ..

انسللت .. بعد سحب يدي التي استجابت لوداعه ..

وعدنا الى البيت ..

كانت غرفتي تطل على الحديقة .. ولها شرفة صغيرة تتصل بعدّة درجات توصل للحديقة .. وكانت غرفة « سمير » بجانب غرفتي تماماً .. يفصلنا الحائط الفاصل بين المنزلين ..

كما أن لغرفته شرفة .. وعدة درجات تصل للحديقة .. يفصل بين حديقتينا سور صغير .. طوله متران تقريباً وكنت أشعر طوال الليل بأنفاسه .. تتردد في أرجاء غرفتي .. مخترقة ذلك الحائط الذي يفصل بيننا .. والذي كنت أتصوره من مادة شفافة كالزجاج مثلاً ..

واصغي لحركات « سمير » .. وسكناته .. ورواحه .. ومجيئه في الغرفة .. ومتى ينام ؟ ومتى يستيقظ ؟ ..

واخذت ازوره في فترات متباعدة .. إذ تسلل الإعجاب به وشمل

اعماقي .. وتكاثف مع الأيام .. حتى اصبح كعاصفة توشك ان تنفجر ! ..

كانت والدته تستقبلني بحرارة .. ثم تنسحب ..

وكنا كثيراً ما نتناقش في الفن .. في الأدب .. ثم أعود سعيدة راضية .. لا احظى منه إلا بلمسة الوداع والترحيب ..

وفي ليلة ..

ثقلت انفاسي .. وضاق جو الغرفة الخانق بوجودي .. فتحت الباب وخرجت الى الشرفة .. وغمر وجهي ضوء القمر .. وشملني سكون الليل ..

وقفت واضعة يدي على حافة الشرفة .. فاتحة صدري لأعب من رطوبة الليل ما يعينني على ضيق انفاسي ..

ونفذت الى سمعي اصوات انفاس تتردد مثلي ..

وادرت وجهي .. ووجدته ..

ادار وجهه الذي بان لي بين زهر الياسمين الذي يفصل حديقتينا .. بان وجهه بين طيات الزهور والبراعم ..

وهمس بحنان :

ـ سهاد ..

وهمست دون ان اعي :

ـ سمير ..

ولم ادر .. إلا وانا احمل كرسياً من غرفتي .. وانزل الدرجات بحذر .. ووضعته امام السور الذي اعتليته .. وتلقفتني يدا « سمير » .. الذي نزل مسرعاً .. ليلقاني ..

واستكان جسدي بين ذراعيه .. وتحت الياسمين .. هناك ..

ولأول مرة .. ضمني بقوة .. قوة الحب المتأصل في الأعماق ..

وركنت لضمته .. وقد اخذت انفاسي تلهث .. وقلبي يغوص مع همسته .. « حبيبتي » ..

واقتربت همسته من اذني .. وزحفت ..

زحفت شفتاه على صفحة خدي .. حتى التقت بشفتي .. وغبنا معاً ..

غبنا في قبل من نار .. ونور .. شمل قلبينا .. وحبنا الوليد هذا ..

ومضى الليل ..

معه .. وبين ذراعيه ..

ودخلت مع بزوغ الفجر الى غرفتي .. وارتميت على سريري .. متهالكة .. سعيدة ..

* * *

مرت ايام لم اره فيها ..

ولم اسمع في غرفته اية حركة تنبىء عن وجوده فيها ..

واعترتني الهواجس ..

إذ خلت تلك اللحظات التي عشتها معه .. تسلية مؤقتة .. واعتقدت بأنه هرب مني .. ومن منزله بسببي ..

حفزني الشوق يوماً ، لأن اطرق بابهم ، واسأل عنه والدته ..

كانت عبرات من عينيها مخيفة .. تنذر بالخطر ..

قالت :

ـ سمير في المستشفى يا ابنتي .. مستشفى السل ..

دارت الدنيا بي .. ولم اعد اقوى على الوقوف .. مع رنة صوتها الحزين .. ولوعتها المروعة ..

وفي المساء .. كنت في المستشفى ازوره لأطمئن عليه ..

ووجدته وحيداً ..

في غرفة تطل على مسافات واسعة من السهول المنتشرة فيها اشجار الزيتون ..

كان لقاؤنا حاراً .. يكتنفه الشوق والألم ..

بكى « سمير » كثيراً .. وبكيت لبكائه ..

ضممته إليّ .. غير عابئة بما يقولون عن هذا المرض الوبيل !.

كان « سمير » كل شيء لي .. وما يحصل له .. يجب ان يحصل لي ..

قال :

ـ إن ما يسعدني في المستشفى .. كون ممرضتي تسمى .. « سهاد » فكأني معك آناء الليل واطراف النهار ..

ومرّ الوقت ..

وودعته .. بعد ان زرعت فيه آمالا .. تعينه على المرض والوحدة .. بعيداً ..

وتكررت زياراتي ..

وكنت كثيراً ما انسى موعد إغلاق الباب في وجه الزوار ..

فاخرج متسللة من بين الحواجز الحديدية التي تحيط حديقة المستشفى ..

واهرع راكضة بين شجر الزيتون .. ملتفتة بين آونة واخرى.. لارى شبحه خلف نافذة غرفته ليطمئن علي .. ملوحة له بيدي من البعيد ..

ثم اعود الى غرفتي التي غدت موحشة .. مقفرة .. بعد بعاده عن جوارها ..

وتحسنت صحته ..

ثم غادر المستشفى بعدما شفي مما به ..

وقررنا ان نتزوج ..

وطلبني من والدتي .. التي فزعت كثيراً من هذا الخبر !! ومن كوني اقبل مريضاً بهذا المرض . ولو كانت لديه مئات الشهادات بنجاحه منه ..

حال بيننا اهلي ..

لم تقنعهم قوة في الوجود ، بان يضحوا بي .. وما علموا ان رفضهم هذا .. جناية كبيرة علي .. لاني لم اعد اقبل الزواج من احد ..

وغضبت والدته كثيراً .. من رفض اهلي لسمير .. واعتبرتها إهانة صميمية ..

ثم طلبت مني الانقطاع عن سمير .. لاعتقادها بأن حبنا الذي لا فائدة منه ..

يزيد .. ويدعم مرض ابنها ..

حيرتني الظروف والاقدار .. وقررت ان اخالف راي اهلي .. واقبل به زوجاً .. رغماً عنهم ! ..

لكن القدر .. كان اقسى مما تصورت .. اذ عـدت في يوم ووجدت منزلهم .. فارغاً ..

لقد انتقلوا الى غيره ليبعدوا عنا ..

* * *

وكان يوم ..

رايته فيه بجانب فتاة بيـدها خاتم الزواج .. وبيـده خاتم ايضاً ..

ونظر إليّ .. نظرة حب وعتاب .. وذكرى ..

ذكرى ماضية لديه .. وحاضرة لدي ..

وها نحن في الخريف ..

والأوراق الشاحبة تنتثر في الطرقات ..

تمرّ عليها الأقدام .. ولا من يعبأ بما يخلفه تحت قدميه ..

واوراقي ..

اوراقي الخريفية .. تنتثر هنا .. بين ارجاء غرفتي .. والزمان يدوسها بقدميه ..

غير عابىء بها .. وبي ..

وسأظل اجدّدها .. وانثرها ما دمت على قيد الحياة ..

* * *

ما اقسى الأيام ! ...

ما اقساها ! إذا شملت حياة الانسان بالحرمان واليأس ..

وما امرّ قسوتها ان استمرت في تعذيبه حتى النهاية .. وما من ومضة تنير له الطريق ..

أو تسبغ على وجوده شيئاً من العزاء .. والسلوى ..

كأن احتماله لذاك العذاب يزيد الظلم عليه كثيراً .. بصمته .. وبتقبّله كل ما تأتي به الاقدار ! ..

لم تكن « سلوى » شيئاً منذ الصغر ..

كل من حولها كان يقول لها .. انها لا شيء ..

والدتها .. إخوتها .. والدها الذي كثيراً ما كانت تمر الأشهر دون ان يكلمها ،كأنه كان يبرهن لها بالفعل ، انها لا شيء ..

كانت ناعمة .. وديعة ..

لكنها ضائعة .. في مشاعرها الغامضة ..

من هي ؟ ..

ولم خلقت ؟ ..

ومرت سنون الدراسة الابتدائية على « سلوى » .. وهي وحيدة ! .. منطوية على نفسها ! .. دون ان تصادق إنساناً .. تمسح بصداقته جراح نفسها .. وآلام وحدتها .. ووحشتها ..

قرر ابوها الا يدخلها مرحلة التعليم الثانوي .. بعدما كانت اختاها قد سبقتاها اليها ..

وعرفت لأول مرة عبراتها المحبوسة .. الطريق الى خدّيها ..

وسالت حارة قوية ..

وكان آلامها كلها .. قد تفتحت عن كبتها .. وقيودها الماضية..

لتسيل غدراناً من الدموع .. وهي .. صامتة ! ..

وتحركت عواطف الأمومة .. لدى امها ..

الوحيدة التي اطلت الشفقة من عينيها !. فاقنعت ذلك الأب القاسي ، بمتابعة تعليمها ..

ودخلت « سلوى » المدرسة .. وقد مر على افتتاحها ما يقارب الشهر ..

ثم ابتدات تجد في الدراسة .. وتضاعف من جهودها لئلا تفشل في شيء تمنته كثيراً .. وقيل لها انها لن تنجح به .. لانها لاشيء ..

كانت دائماً منزوية مع مشاعرها المكبوتة .. وصمتها .. ووحدتها ..

ضائعة بين اجوبة الف سؤال يجول في اعماقها .. ولا من يأخذ بيدها ! .. او ينير لها الطريق ! .

كانت الكلمة الوحيدة التي ترافق سمعها وتفكيرها دائماً .. هي .. انها لا شيء ..

وكثيراً ما كانت لياليها مؤرقة .. مشحونة بالسهاد والعذاب ..

وتتمثل لها الحياة قاسية .. موحشة .. ملأى بالحرمان من اي عطف تورق معه الراحة والاستكانة ..

كانت تداعبها الأمنيات .. والآمال مع إشراقة الصباح .. الذي كان يمسح عن اجفانها عذاب الليل .. حتى اذا ما نهضت .. وذهبت الى المدرسة .. وسمعت ضجيج الناس .. وصخب الشارع .. عادت لنفسها المنطوية .. اليائسة ..

لقد عاشت « سلوى » مع صراع مخيف .. مع الضياع ..

وتفتحت نفسها عن موهبة كانت غافية في أغوارها ..

لقد ابتدأ قلمها يخط صدى انفعالاتها على الورق ..

كتبت تقول :

« أيسعد النفس وآمالها الغاربة ؟ .. جمال الفجر ..

ايسعد النفس الا هذا الغروب الناري ..

تعيشين يا نفس معه كالتوام .. ويلفك بلوعته .. وظلمته الزاحفة ..

ولكن .. اليست آمالي في ليل عميق .. لا يعرف مداه ؟ ..

اليس الضجر حليفي ؟.. والكآبة غلافي ؟ ..

أيوجد فناء بعد هذا الفناء ؟ ..

أيوجد عدم بعد هذا العدم ؟ ..

لقد ضيعتك المتاعب .. وعذبتك الآلام ..

يانفس ..

كفاك شكوى وهموم ! ..

كفاك حزن وغيوم ! ..

فلتطمرك الأغوار .. ولتستلب منك الانفاس !

إن بقيت لك انفاس ؟ ..

* * *

بلغت « سلوى » في تعليمها صف الكفاءة شهادة الدراسة المتوسطة ..

وتقدمت للفحص ..

وفشلت ! ..

وتجسد يأسها في هذا الفشل .. حين جاءتها علامات الفحص .. ووجدت ان نصف علامة اخرى .. كانت تكون معها ، في عداد الناجحات ..

وللمرة الأولى ..

عرفت معنى الرسوب . وذاقت مرارته .. فكأن الأيام قد تكالبت عليها .. لتذيقها من المرارة الجرعة تلو الأخرى ..

وكأن رسوبها .. كان الفرصة الوحيدة التي ينتظرها والدها .. اذ منعها من متابعة دراستها .. كانت ممانعته قوية ! ..

لم تجد معها توسلاتها .. ولا شفقة امها عليها ..

ونما في اعماقها الاستسلام لكل ما يأتيها .. وما كتبته لها الأقدار ..

ركنت « سلوى » منزوية بين جدران البيت مع الحسرة التي تاكل منها النفس .. واليأس الذي يذيب منها الجسد ولم تثور ؟ ..

ومن يستمع لثورتها ؟ ..

كتبت تقول :

« ماذا رأيت يا قلب من البشر ؟ .. وعلى ماذا حصلت ؟ ..

اذاقوك المرارة والعذاب .. وخلفوك للضياع والشرود ..

زينت لك الأيام .. الطريق بالورود الملأى بالأشواك ..

وتركتك ترتمي بينها .. والدماء تنزف منك غزيرة .. قانية ..

رويدك .. يا قلب ..

فماذا تفيدك الحسرات والآلام ؟ ..

خلقت في الظلام .. واعتادت عيناك عليه ..

فلمَ خدعتك الشهاب ؟ ..

فلحقت بها .. باحثاً عن السعادة ..

فما خلقت السعادة لك !..

عشت ايامك في ظلمة .. فلتتممها في ظلمة ..

ما عهدتك إلا صابراً .. صامداً .. في وجه عاديات الأيام .. وعتمة الليالي » ..

وجاء العريس الذي ينتظره اهلها .. وقبلوا به ! ..

رغم انه كان متزوجاً .. وله ولدان ..

اما زوجته .. فقد طلقها ليستبدلها باخرى .. وما من سبب يبرّر فعله هذا ..

ودخلت « سلوى » بيت الزوجية ..

مستسلمة لما سجّلت لها الأقدار ايضاً من مفاجآت ..

وطالعتها عيون صغيرة .. بريئة .. فيها نظرات الاستغراب ! والاستفهام ؟! ..

من ابنة في السنة الثالثة .. وصبي في الخامسة ..

حاولت « سلوى » ملاطفة الطفلين البريئين .. لكن النفور منها كان مفعماً في نظراتهما الساذجة .. وعملت جاهدة لكسب حبهما .. لكن محاولتها كانت سدى ..

فقد كان الفراغ الذي خلّفته امهما .. كبيراً .. لا تملؤه امراة غريبة ..

امراة لم يرضعوا لبنها .. ولم تضمهم الى صدرها الحاني .. حين ابتدات عيناهما تعرف الحياة ..

واخذت تلحّ على زوجها .. بإعادة زوجته الى البيت ..

ونجحت .. لأول مرة في طلب تطلبه ..

* * *

عادت تلك المرأة « ضرّتها » تعيش معها .. ومع أولادها ..

وسعدت سلوى .. لسعادة هؤلاء الصغار .. ولو جاء من يشاركها زوجها ..

وهدأت مع صفو الحياة قانعة .. راضية .. وقد لمست في أعماقها ميلاً يتزايد نحو زوجها ..

الذي قدّر نبل مسعاها .. واحاطها برعايته وحبه

لكن الألم الذي اعتاد مصاحبتها منذ الصغر .. عاد يطلّ عليها ..

حين لمست اهتماماً يتزايد بين زوجها .. واخت لها مطلقة .. لعوب ..

وتجاهلت الأمر ..

لعل ظنونها مخطئة ؟ ..

ومرت الأيام على سلوى .. قاسية .. متعبة .. وهي ترى زوجها يذوب شوقاً لأختها ! .. ويزداد فتوراً نحوها ! ..

كيف تحتمل هذا النوع من الحياة ؟ .. بعدما احتملت مشاركة أولاده وزوجته ..

اتقسو عليها الأيام ؟ .. الى هذا الحدّ ..

لم يعد بها بقايا احتمال .. وصمود ..

كتبت تقول :

« لمَ غدرك يا زمان ؟ ..

لمَ حرمانك يا أيام ؟ ..

لمَ العذاب يا ربي ؟ .. لمَ الهوان في دربي ؟ ..

لمَ الشوك في طريقي ؟ ..

إنها قصتي .. قصة حبي .. قصة حرماني ..

أما ارتضيته لي يا قاسي ؟! ..

يا لي من مغرورة يوم اعتقدت انك تقنع بحبي ! . ..

يا لي من ساذجة حين صدقت لوعتك ! ..

يا لي من ضعيفة حين آمنت بما ادعيت . !

في أعطافي آنات مكبوتة .. في جوانحي آهات محرقة .. في قلبي نار ..

أما تخاف غدر الزمان يا مدّعي ؟ !

أما تخاف نقمة من عذّبتها ؟ .. أما تخاف العذاب من سواها ؟.. أتؤمن بقدرتك الى أبعد الحدود ؟ ..

احذر يا حبيبي .. رغم غدرك وآلامي ..

أخاف عليك ! .. »

وغادرته « سلوى » الى بيت أهلها ..

الى جدران منزلها القديم .. تنزوي بين اركانه .. تعيش بين أوراقها .. وكتاباتها التي وجدت فيها السلوى .. والعزاء .. لما لقيته من غدر زوجها .. ودهرها ..

وابتسمت « سلوى » لشقاء زوجها .. حين جاء من خطب اختها .. وتزوّجها ..

وافعمه الغرور .. بانها ستعود اليه .. وارسل لها من يستعطفها متناسياً ما سببّه لها من عذاب ، وكيف تعود اليه .. وتأمن جانبه .. وهو .. الغادر ! ..

لا .. لن تعود ..

كتبت اليه تقول :

« لا تبتسم يا عزيزي .. فقد نسيتك الذاكرة

وطويت ايامك في الثنايا المهملة !!

ان اعماقي تغوص في امس ضائع ..

لمَ تصوّب إليّ سهامك ؟ ..

انسيت اني مررت عليك ذي يوم ؟ ولم تعبأ بي ؟! ..

لقد فرشت لك الدروب سوسناً .. وبنفسجاً .. وانت ؟ .

انت .. الذي تركتها تذوي وتأكلها الهموم ؟! .

اتعتقد بعد هذا ، انك تحييها بنظرة منك ؟ ..

يا لذكرى الأيام الماضية ..

اين كنت يا غافي ؟ !.. اين كنت يا لعوب ؟ !.

بيدك .. بيدك غلفلت الحزن في نفسي ..

بيدك .. بيدك زرعت فيّ بذور النسيان ..

بيدك احلت الأيام والأماني الى شبح ضائع مخيف ..

كانت ايام عمري .. معك .. فجراً مشرقاً ..

وانت الذي احلتها امسيات .. حزينة ..

لا تبتسم ابتسامة الواثق !!

لقد كان حبي بين يديك .. إناء تعبّ منه

وبيدك سفحته ..

عليك الا تلعب بالنار .. بعد انطفائها . !.. فليس ثمة فائدة ..

يا لك من ساذج .. مغرور .. ان كنت تعتقد ان ماخلفته يوماً ..

ستجده بانتظارك ..

* * *

لم تعد « سلوى » الى زوجها ..

بل عاشت لكتاباتها .. وعرفت الطريق الى دور النشر ..

وابتدأت تنشر ما تكتبه .. وطالعتها النظرات المتسائلة ؟ ..

من هي ؟ ..

ما دورها في الحياة ؟ ..

ما مدى ثقافتها .. وعلمها ؟ ..

وظلت مختبئة .. تكتب وراء الجدران .. غير عابئة باسمها !..

ان عرف ! وان لم يعرف ؟ .. تريد ان تكتب فقط !. ..

التقطت « سلوى » صحيفة الصباح .. وارتمت تلك الصحيفة من يدها . !..

لقد صافح عينيها خبر مهم ! ..

مات زوجها بعد صراع بينه وبين زوج اختها .. حين ضبطهما معاً .. في منزله .. في وضع مشين ..

اضطربت اعصاب « سلوى » .. وغمغمت ..

ـ لم يتخل عنها حتى الموت ..

ارتمت الصحيفة من يدها دون ان تنظر الى الصفحة الرابعة ..

فقد نشرت لها قصة بعنوان « نهاية » ..

* * *

البارحة .. واليوم

البارحة سمعت راي الرجل .. في سهرة هادئة ضمت عدة اسر ..

واليوم قرات راي رجل آخر .. في كلمات عبّر عنهـا في صحيفة الصباح ..

وانا .. ورايه .. على طرفي نقيض ؟! ..

البـارحة ..

رايته امامي .. رجلاً .. متزناً .. وكان مدار حديثه يجول بين الذكريات .. وبين اعوام قضاها في التخصص في باريز ..

باريز ؟! ..

بلد العجائب ! .. والأحلام الدافئة ! .. بلد النساء الدافئات .. والأيام الربيعية الدائمة .. ولو كانت الدنيا في شتاء مستديم !! ..

واليوم ...

قرأت رأي رجل آخر في الصحيفة .. يعبّر عن العواطف بأن لا مجال لها في حياة الإنسان .. بل عليه أن يختار الزمان .. والمكان .. ويستفيد من وقته .. ويستمتع بما يجمعه .. الزمان والمكان ؟ ! ..

أهذه هي مبادىء الحياة لدى الرجل ؟! ..

الإستفادة .. والمتعة .. فقط ؟! ..

واين العاطفة في حياته ؟ .. في أغوار بذور الغد ؟ !..

والبارحة سمعته يقول :

« لن أنساها ليلة .. ما حييت ! ..

إنها ليلة بدون غد ..

كنت في باريز .. وكانت ليلة راس السنة على الأبواب .. وذهبت الى « كاباريه » مشهور وانتحيت ركناً ، أطل منه على الكتل البشرية المبعثرة .. تصخب ماجنة مع الخمرة .. والنساء .. والدخان ! كانت تجاورني في الطاولة .. سيدة .. جميلة .. في العقد الثالث من عمرها ..

تبدو عليها سيماء الإتزان .. والهدوء ..

كانت وحيدة ،! ..

وكنت وحيداً ! ..

ودفعني الفضول .. لمراقبتها.. وهي تحرق الليل بين الكأس.. ودخان السيجارة ..

جاءها شاب جميل .. يفور بالصبا .. والحيوية .. وطلبها الى الرقص ..

اعتذرت .. دون ان توجّه اليه حتى ولا .. نظرة .! .

كأن اعتذارها ، كان مقرراً قبل مجيئه .! ..

وجاءها الثاني .. ثم الثالث .. وهي تعتذر ! ..

انهم شباب في عمر الورود النضرة ! ..

وحرت وانا اتساءل .. ما سر تلك المرأة ؟ .. الصامتة ؟! ..

ولم ادر .. الا وقوة علوية .. تحملني من مقعدي اليها .. وتدفعني دفعاً الى طلبها للرقص ..

ونهضت ! ! .

نهضت .. منذ اول حرف خرج من فمي خائفاً ..

ارتمت بجسدها .. بين يدي لترقص ..

وجالت المشاعر باعتزاز في اعماقي .. وحفزني الغرور ، لأن اسألها عن سبب انصياعها لي ..

بعدما رفضت مراقصة البراعم النضرة ؟ ..

وكان جوابها ..

لا تحب الرقص مع الشباب الصغار .. تحب الرجل الناضج.. لاتزانه .. لعمق تفكيره .. لتصرفه الموزون ..

ضممتها الى صدري .. واستجابت لما افعله بها ..

واتفقنا على تمضية ليلة بدون غد ..

* * *

اطفئت الأنوار في الساعة الثانية عشر ..

كانت بين يدي .. وعلى صدري .. وتسللنا الى الخارج .. الى بيتهـا ! ..

الى ليلة حمراء .. قضيناها معاً .. فيها كلمات .. وهمسات .. لا تنتسى ! ..

خرجت من بيتها .. مع بزوغ الفجر .. مترنحاً .. نشواناً .. بين أعطافي سعادة .. ما استشعرت يوماً بمثيلها ..

وحتى الآن .. لم انس تلك الليلة .. انها في اغواري .. حارة .. قوية .. مطوية مع الذكريات .. الحلوة .. الجميلة ..

الى هنا .. توقف محدثي ..

ومن الغرابة .. اني لم ارَ على وجهه ، اي تاثير من سرده لتلك الذكرى ..

لم ارَ .. حتى ولا ومضة من الحنين .. لتلك المراة ..

كانها مرت .. كما يمر الليل ويعقبه النهار ..

كنت اتابع حديثه .. بغصات تعتصر قلبي .. متسائلة :

ـ لربما تحبه تلك المراة حتى الآن ؟ ..

ولمَ لا ؟ ..

اتختلف المراة في باريز .. عن المراة في الشرق ؟ ..

أم باريز .. بلد العجائب .. تبدل المفاهيم عند الجنسين ؟ ! .

وابتسمت لحديثه .. وذكراه تلك ..

كنت اود ان ينقلب ابتسامي كلاماً .. كلاماً صريحاً .. ينصب في اذنه .. وبين طيات ذكرياته .. كنت اود ان اقول له .. ان الحياة والسعادة ليست في ليلة واحدة بين ... ذراعي امراة ..

امراة يطويها الغد .. ويطويها النسيان .. حتى لملامح وجهها وجسدها ؟ ! ..

الحياة غير هذا ،! ..

الحياة مثل .. وإخلاص ..

الحياة غنية بالعواطف السامية .. الزاخرة بالمعاني الرفيعة ..

الحياة حب .. يعيش معششاً بين حنايا الضلوع .. ينخر فيها آناء الليل .. واطراف النهار ..

الحياة عاطفة .. تحيا في الأعماق .. تسعد .. وتشقي صاحبها .. وفي سعادتها وشقائها كل اللذة ..

الحياة عبادة وصلاة لإنسان هو بعد الإله ..

* * *

قال :

خذوا العمر كله .. واعطوني ليلة واحدة في باريز ..

إنها ليلة من نار ، ! ..

ليته قال :

ـ اعطوني ليلة واحدة مع تلك المراة ..

إنه يذكر ليلة فقط .. بين ذراعي امراة لعوب ، عرفت كيف تسعده .. وتهبه ساعات ماجنة ..

لكنه للأسف لا يذكرها بل يذكر اللحظات معها ..

كنت اود ان اقول له :

النار غير هذا يا صديقي ! ..

النار مشاعر تستعر بين الضلوع ! .. لا تجرؤ الشفاه الحيّة .. الخجولة .. أن تصفها .. او تصبّها ..

اهذه هي الحياة عند الرجل ؟ ..

ليته يتفهم عواطف المراة جيداً .. ويتفهم تفكيرها .. وسمو عواطفها نحوه

إنها تحب وتشقى .. في سبيل من تحب ! ! .. وتظل الاعوام، على ذكراه .. ترتجف لسماع اسمه .. او صوته .. تعبد له الطريق الذي يدوسه بقدميه .. رعاية وحناناً .. وذكرى حلوة ..

تتالم لحوادثه .. وهو عنها لاهٍ .. بليالٍ حمراء .. وفرص ثمينة ؟! ..

يعيش بين الآلاف من النساء .. وهو الوحيد في حياتها .. في ايامها .. ولياليها المؤرقة ..

إنها العبادة الصادقة .. والمشاعر البريئة التي تغلف حياتها بإطارها ..

اتساءل دوماً :

ـ متى يدرك الرجل حقيقة مشاعر المرأة ؟ ..

لو نظرت يا صديقي الى وجه فتاة اعرفها .. ورأيت تعابير العبادة التي ترتسم على محياها ..

كلما ذكر اسم الشخص الذي تحبه .. لكنت ركعت ساجداً .. مقدراً نبل عاطفتها .. وحبها المخلص .. الذي لا يخالجه شيء من الأنانية ..

لو رأيت اجفانها .. المسبلة .. وخلفها تتجول الدموع حيرى .. صامدة .. لا تعرف الطريق الى الخدود بل تعرف الطريق الى الداخل .. الى القلب المعذب ..

إنها تحبه فقط .. لانها تحبه .. وليس لانه لا يحبها ، او حتى لا يشعر بوجودها ..

إنه كغيره ضائع .. بين المتعة من الف امرأة .. رغم انه متزوج وله اولاد ..

تحبه ! .. وتحب حتى زوجته واولاده .. ما فكرت يوماً بأنه يجب أن يكون لها ..

لها وحدها ..

إنه لحياته .. لظروفه .. وهي ؟ . نكرة في حياته ! تعيش على حبه .. في اعماقها وفي دروبها ..

إنها الحيرة التي تعذب المرأة .. حيرتها من البارحة .. واليوم .. وغد ..

وحيرتي ليس لها آخر .. بين احاديث الرجل البارحة .. وآرائه اليوم ..

بين عواطفه .. وعواطفها ..

وبين مفهومه لها .. ومفهومها لتلك العواطف ..

ضائعة

في عينيها شرود ! . وحيرة ! ..

ومن خلال الشرود ، تنعكس آلام صامتة ..

تتصنع الابتسام .. ووراء ابتسامها هذا ، مرارة جارحة .. خلفتها لها الأيام ..

إنها ضائعة .. حيرى ..

وحيدة في مشاعرها .. تائهة في الطريق الذي رسمته لها الأيام ، وارتضته لها الأقدار ! ..

اطفالها عشرة ..

وزوجها ؟ ! .. إنه آلة صماء .. لا يحس ولا يشعر ..

إنه عالة في البيت .. ذلك البيت الذي هدّمه بالبطالة ، ثم عادت هي تبنيه ! ..

تبنيه على اكتافها التعبة .. العارية ! الا من خرق بالية ..

اية مشاعر هائنة ؟ تريح ذلك الزوج ، وهو يرى زوجته تأتي له بالمال ؟ ..

ومن اين ؟ ..

لقد سيطرت عليه عاهة البطالة .. وعاش على حساب زوجه .. على حساب شرفه المثلوم ! ..

وهل به بقية من مشاعر ، ليحس ان شرفه قد هدر ؟ ! ..

عرفت قصتها من اقربائها ..

كانت هادئة ، كالملاك بين جدران بيتها ..

قانعة بالنقود القليلة التي كان يكسبها في البداية ..

ومع مرور الأيام .. اتاها الولد تلو الولد ..

والاب ؟ .. في البيت دون عمل ..

وتعبت عيناها من البكاء .. وأولادها يتضورون جوعاً .. تطوي الليل وانين الجوع يطنّ في اذنيها .. يتعالى من افواه اطفالها ..

ويبزغ الفجر .. وهي تلمس القوى الواهية .. منتشرة اشلاء محطمة ، على الفراشين الباليين اللذين تملكهما ، واللذين اتت بهما من قريتها .. عندما تزوجت ..

ليتها لم تأت الى المدينة ؟ ..

لقد ومضت النجوم امام عينيها كثيراً ، عندما جاء من يهمس في اذنها :

ـ إنه شاب من المدينة يخطبك ! ! ..

غزت خاطرها احلام براقة .. اذ تناست ابن عمها .. وحبهما ..

اتعيش بقية عمرها في القرية ؟ تنبش الأرض .. ترعى الحقل .. وتعود في المساء مع الأبقار ؟ ..

لا .. لا ..

إنها احلام ساحرة .. ستحققها .. ستعيش في المدينة ..

ودلفت مزهوة الى السيارة .. الى جانب ذلك الشاب الأسمر الجميل ..

فارس احلامها ! ..

واستقبلت المدينة فرحة .. إنها المدينة ؟ ! ..

ذلك العالم الواسع .. المملوء بالأسرار والخفايا .. الأضواء تبهرها .. الضجة تلفع سمعها .. والناس يمرّون بألبستهم الزاهية ..

ستغدو مثلهم ..

وابتسمت :

إنها المدينة .. الحلم الخالد في روحي ! ..

* * *

لقد خلعت عنها ثوب القرية الى الأبد .. وأتت مع ذلك الزوج ،

تتيه فخراً واعتزازاً .. انت لتعيش بين جدران تلك البيوت المتطاولة الى العلاء ..

ومرت سنوات ..

كانت فيها راضية .. ترعى طفليها .. تطيع زوجها ما استطاعت الى الإطاعة سبيلاً ..

وكثر عدد الأولاد مع مرور الايام .. وكثرت الأوقات التي يمضيها زوجها في البطالة ! ! ..

لا يحثه شيء من السعي وراء العمل .. او الرزق ..

ونبهته الى ذلك ..

حثته راجية .. ان يبحث عن اي عمل ، يسد به رمق اطفاله الجياع .. وبطونهم الخاوية ..

كانت انات أطفاله تنسكب في اذنيه ، ولا من يسمع ..

وكررت الطلب على مسمعه .. واسمعته الآهات .. فلم يرعو .. ولم يفهم ..

وليس به علة تقعده عن العمل .. وبيده مهنة لا بأس بها ..

لكن الفراغ جميل .. ولذة الاستمتاع بالبطالة قد استبدت به ..

ولم يستمع لنداءاتها المتكررة .. ثم غادرت محرابها تعمل ..

غادرت جدران بيتها يائسة .. غير عابئة بما ينتظرها خارج هذا المحراب ..

واشتغلت في البيوت .. وامتدت إليها الأيدي تداعبها ..

وهربت ..

هربت الى محيط اوسع .. الى الفنادق .. الى المحلات الكبرى ..

وزحفت آثار النعمة تشمل الأولاد .. وترفرف على وجوههم ..

ومن يدفع الثمن يا ترى ؟ ..

إنها تلك الشابة التي غادرت قريتها تحلم بالحياة الطيبة .. في المدينة .. فإذا بها ينتظرها شقاء أفزع مما خلفت .. وتبددت احلامها ادراج الرياح ..

هربت من العمل في القرية .. لتعمل في المدينة ..

المدينة ! حلمها البراق ..

ليت الأيام لم تفجعها في ذلك الحلم ؟ .. او ليتها أبقتها في جو العمل .. فقط ؟! ..

وامتدت اليها الأيدي تفرش المال أمامها .. وغزا بريق النقود عينيها ..

أمتدت يدها تعبث بالمال .. وشعرت بلذة غريبة ..

لمَ لا تحصل على الثمن دون تعب ؟ .. طالما في المنزل من ينتظرها دائماً ليقبض ثمن اتعابها ..

واستسلمت للإغراء والانتقام ..

انتقمت من ذلك المسمى زوجاً لها .. وانتقمت من نفسها التي خدعتها بتركِ ابن عمها وقريتها ..

وأراحت جسداً هدّه العمل والجري وراء لقمة العيش ..

* * *

انفضّ الأهل والأصحاب عنها .. ولاكت الألسن سيرتها ..

ولمْ تعبأ ..

ولمَ تعبأ ؟ ..

لقد سدّ الكل آذانهم عن صوتها .. عن صرخة أطفالها الجياع ..

حتى ذلك الإنسان الذي يبتسم مزهواً لأنه زوجها ! .. قد تصامم في الماضي أيضاً ..

وتمادت في السير في طريقها الشائك .. وعبدت طريق أولادها نقوداً وحلياً تجمّل أيديهم ..

وانسكبت الملامة ناراً في أذن زوجها .. ولم يسمع

وانسكبت تلك النار في آذان أولادها .. ولم يسمعوا ..

لقد امتلأت بطونهم ، وسعدت أيامهم .. وكانت وحدها التي تدفع الثمن ..

ما أغرب قساوة الظروف ..

كيف انعدمت مشاعر تلك العائلة ؟ .. وتصامم الكل عن نداء الكرامة .. إزاء فرد من أفرادهم ..

مسكينة ! ..

لا ألومها .. بل ألوم ذلك المجتمع الظالم .. الذي ينشد الخطيئة .. كأنها الوسيلة الوحيدة لكسب العيش ..

ألوم ذلك الإنسان الذي أخذ بيدها في الحياة .. ورماها بين الذئاب والأشواك ..

ولمن رماها ؟ ..

رماها لرجال امثاله .. تفتقر نفوسهم الى الضمير والوجدان .. يطلبون اللذة الحرام ، لقاء دريهمات يلقونها الى تلك المحتاجة البائسة يزرعون لها الدروب .. امان وآمالاً مزينة بالخطيئة المحرمة ..

هربت من القرية الى المدينة .. لماذا ؟ ..

هل في المدينة سوى المدنية الزائفة ؟ ..

لقد تركت قريتها ، ذلك العالم الرحب .. الواسع الأفق بين الحقول الخصبة والسماء الصافية .. بين الزهور التي لم تدنسها يد الإنسان وفيها الإنسان الذي نشأ على حب الأرض والعمل .. لا يعرف الكلل ولا الملل ..

لقد خدعتها المدينة وجرفتها بتيارها المزيف .. هربت من الطهارة والإخلاص ، لتعبث بها أيدٍ قذرة مدنسة ؟ .. انها المدينة الملأى بالذئاب البشرية المفترسة ..

اما كانت أمسياتها اعذب .. مع ابن عمها ، الذي كان يحبها بإخلاص .. ويخاف عليها من رعشة النسيم .

يغار عليها حتى من الفراشات الحائرة ..

لقد سدلت على عينيها غشاوة برّاقة .. اعمتها عن الحب .. إنها ضائعة ..

خدعت بشاب جميل غزا قلبها .. وقريتها .. ونقلها الى اجواء لم يكن هو اهلاً لحمايتها من قذارة البشر ..

فقدت الحب والشرف .. وكسبت شفقة « لا تسمن ولا تغني من جوع » .. وسمعة سيئة ترافقها مدى الحياة ..

وغابت اخبارها عني .. وجاء من روى لي نهايتها المحزنة ..

لقد انصبت عليها قذارة البشر امراضاً تفتك بها .. ورمتها طريحة الفراش .. وحيدة .. في غرفة منزوية من المدينة ..

وتخلى عنها زوجها .. واولادها !! لانهم اعتادوا الأخذ منها .. لا العطاء ..

* * *

جاء ابن عمها .. يسأل عنها .. بعد ان استقصى اخبارها .. وعرف قصتها ..

ووجدها في غرفة .. منسية .. ماتت منذ اكثر من اسبوع..

إذ ارتد صامتاً .. واجماً .. تسيل دموعه حرقة .. ومرارة..

وواراها التراب .. ثم عاد الى قريته الهادئة النائية .. يحمل بين جنبيه حسرة على تلك المسكينة التي جرفها تيار الأحلام .. ولم ترحمها قساوة الأيام ..

لم يرحمها الزوج .. لم يرحمها الأولاد.. ولم يرحمها المجتمع..

لعل الله يرحمها .. ويعفو عنها ..

اسرعت « هالة » عائدة الى البيت من عملها ..

في قلبها ثورة صامتة ! ! ثورة من الاقدار وجحودها . ! . .

امها مريضة ووحيدة ! . . امها طريحة الفراش . . منذ شهور . . تعيش على انتظار ابنتها كل يوم . . وتلقاها في وداع النهار لأوائل الليـــل . .

ولمعت دمعة على خد هالة ! ! مثلما تلمع قطرة الندى بين أوراق النرجس . . وطوتها السبل . . والريح تلفح وجهها . . تمسكت بمعطفها وحثت الخطى . . وتراءت لها الـدروب كالهموم طويلـة لا تنتهي . .

واخيراً . . وصلت لاهثة . . وارتمت على يدي امها تتحسسهما . .

وتسألها عن حالها ؟ . حين رفرفت اجفان الأم .. ثم جاءها حنان امها بصوت يحاكي وشوشة الناي رقة :

ـ إنني بخير يا « هالة » ..

وانسابت دموع حرّى على خدّي هالة .. وهي تتصنّع ابتسامة تخفي وراءها غصات اليمة ..

وامتدت يد الأم تعبث بخصلات شعر « هالة » .. وهي في الم وشرود ، ! .

حولت الأم وجهها .. ونظرت عبر النافذة .. كأنها تبحث عن اسرار الأيام والليالي ..

انقضى النهار متنهداً بين جدران البيت .. وغابت الشمس وهي تترك قبلة الوداع على زجاج النافذة ..

خيّم سكون وادع .. على هالة وأمها .. وبدا الكلام صعباً ، حتى قطعته الأم :

ـ لنتكلم يا هالة .. إنني أشعر بقواي تتسرّب مني رويداً رويداً .. انا على شفا الهاوية .. وانت يا هالة ؟ سأغادرك يوماً واخلّفك للوحدة والوحشة .. كيف يكون حالك ؟ ..

هل تحملين لي الكره لأني حرمتك والدك .. وخلفتك للقلق والعوز ؟ ! .. اذكريني بالخير يا هالة ! .. واذكري آلامي التي مرّت عليّ ..

اذكري أن والدك سبب تلك الكآبة الخرساء الجاثمة على صدرينا ! ! .. لا تسعفني قواي بسرد كلّ ما مرّ عليّ .. وهناك

في خزانتي تجدين اعترافي بين رزمة اوراق عاشت معي وشاركتني حبي وافراحي وآلامي .. خذيها يا هالة واقرئي عذاب نفسي ودموعي المدفونة بين طياتها ..

اسرعت هالة الى الخزانة تفتحها .. تفتش عن أوراق امها .. لتشاركها آلاماً ما تجرات يوماً ان تسألها عن سببها لئلا تزيد في حدتها .. ثم فكت شريطاً ازرقاً ربط بعناية .. وامتدت الصفحات امامها تصور لها خيال فتاة في مثل عمرها .. في أولى درجات الحياة ..

« ايها القدر .. ايها الليل .. ايتها الموسيقى الساحرة .. ايها القمر الحالم .. ما فعلتم بي ؟ وما فعلتم به ؟ ..

لمَ جمعتني به يا ليل ؟ وخططت لي حبه في صفحتك يا قدر ؟

لمَ اسكرتني يا موسيقى ؟ وتركتني لقمة سائغة بين يديه ؟ ..

لمَ داعبت انفاسك انفاسنا يا قمر ؟ ..

لمَ ارسلت لنا شعاعاً من دنياك الساكنة الحالمة .. ورميتنا بين احضان عواطفنا التي اشتعلت ..

لم تجذبنا الأقدار وتعود لتحاكمنا على ما فعلنا ؟

كنت معجبة به أشد الاعجاب .. بطوله الفارع وعينيه الخضراوين .. اللتين تنقلان المرء من شاطىء الواقع الى شاطىء الأحلام وهي تمخر به عباب محيط ذهبي بعيداً عن شواطىء الزمن ..

وكان الخوف يتملكني كلما صادفته .. واخاف من نفسي ..

لذلك كنت كثيراً ما أتجنب الاجتماع به .. حتى جمعتني به الأيام في نزهة .. وصافحني متسائلاً :

ـ الست ذاهبة الى حفلة الليلة في « د » ؟ .. وكنت فعلاً ذاهبة اليها ..

اجبته بإيماءة من راسي اني ذاهبة .. حين مدّ يده مصافحاً بتودد ظاهر ..

ـ الى اللقاء إذاً ..

وجاء المساء ..

وذهبت الى حفلتنا هذه والسعادة تغمرني وشيء من المجهول يخيفني .. وجلست في مكاني .. صامتة .. اسبح مع الموسيقى التي تلاعبت بقلبي وعواطفي .. وطرت مع احلامي على اجنحة ترفرف وتتراقص .. مع ليل .. وهدوء .. وموسيقى ..

وجاء محيياً .. واخذ مكانه بجانبي ..

وانطلقت نفسي مع نفسه ..

مرت لحظات .. لحظات حلوة .. هانئة .. وقد سكب فيها كلامه في اذنيّ المرهفتين لحديثه بكلمات متقطعة محببة ...

انتهى حفلنا والليل قد انتصف .. حين استأذن متلطفاً في مرافقتي ليوصلني بعربته الى البيت ..

سكتُّ خوفاً من أن يشعر بخوفي ..

ودلفت بنا السيارة في الأزقة الهاجعة .. وانحرفت الى طريق طويل يبعد عن بيتنا ..

اسكتتني نظرته وابتسامته حين قال :

ـ لنتمم ليلتنا في جولة قصيرة نرى القمر ..

وخفف من سرعة السيارة .. ولفنا سكون الليل وهيمن علينا وفي عواطفنا اصداء الخمرة التي شربناها من الموسيقى .. واختلطت انفاسنا ودقات قلوبنا بسحر الليل والقمر ..

عدت الى بيتي بعد مرور ساعات .. على انتهاء الحفل .. عدت مترنحة .. متهالكة .. حول انفاسي عبير صدره .. وعلى خديّ لمسات خده .. وبين يديّ .. قلبه وحبه !! ..

تحسست وجهي وانا مستلقية على سريري .. الذي كثيراً ما ضمّني وحنا عليّ في افراحي وآلامي .. ودفنت وجهي بين طياته ابثه الشكوى ..

وكرّت بي الذكرى عائدة الى طفلة في العاشرة من عمرها . عندما ابتدات ادرك ذلك الشقاق المستحكم بين والدي ووالدتي ..

كنت في الصباح اسمع اصواتهم تتنافر .. وتعلو .. وتهبط .. ويسود الوجوم .. ويمتد اياماً واحياناً شهوراً ..

وكنت في المساء انطوي على صمتي وكآبتي ..

كنت انظر اليهم بعين ملؤها الخوف والتساؤل .. وتلفّني جدران غرفتي .. وانا اجلس الساعات ساهمة شاردة .. احاول فهم سرّ الالم في حياتنا الذي لم اكن ادرك كنهه بعد ..

وتكونت في اعماقي خيالات لايام تعيسة قاتمة ..

كنت رغم صغري ادرك ان على والدتي مسؤوليات لم تفهما حقها .. عليها ان تصمد للعاصفة .. ان تسكت كلما ثار والدي ..

لانه الرجل .. وله الحكم المطلق .. عليها الا تجادله وتوسع شقة الخلاف بينهما ..

وكنت بطبيعة الأنثى اشعر بانني ساتزوج يوماً .. وعليّ أن اكون لطيفة .. طيّعة .. لا أجيب على ثورة رجلي بإيماءة حتى تأصلت في نفسي روح الخضوع والاستسلام للأقدار .. وكم جرّ عليّ هذا الخضوع من ويلات ؟ ؟ ! ..

سارت السنون وانا في انطوائي وصمتي .. اقابل الإساءة بالغفران .. والغضب بالصمت .. حتى رايت نفسي شابة تبلغ الثامنة عشر .. عاشت بمعزل عن الناس .. وخافت الناس .. وتوجّست شراً منهم .. رغم انه كانت لي عدة صديقات .. كانت صداقتهم الموئل الوحيد الذي الوذ اليه .. وشاطىء الأمان الذي ارسي عليه بسفينتي الضائعة ..

وتعرفت عليه .. كان اخاً لإحدى صديقاتي .. وكانت هذه الليلة المعهودة بيننا ..

وشملني الخوف والقلق وانا اعود من ذكرياتي هذه حتى خفف من هذا الخوف طلوع الفجر .. حيث تجدّد الأمل في نفسي في سعادة بدات احبو اليها واعيش في فيء ظلها ..

وتزوجته ..

عشت معه سنوات سعيدة .. عشنا على الليالي الحلوة .. على الأيام الهانئة الرضيّة ..

ورفرفت السعادة اكثر بأجنحتها الوادعة في سماء وجودنا حين

جاءتني ابنتي « هالة » .. حيث اضافت لحياتنا معنى جديداً من معاني الهناء والراحة ..

وكبرت ابنتي .. وبلغت الرابعة من عمرها .. ونحن هانئان لا يعكر صفو هناءتنا حزن ..

وانطلقت بنا الأيام الى اجواء جديدة .. من رحلات .. وسهرات مع بعض الأسر من اصدقائنا .. إذ وجدت في انطلاقنا هذا .. مورد سعادة اخرى ننهل منه ..

لقد حملت لي الأيام وتمخضت عن مفاجآت لم اكن اتوقع حدوثها .. ولم اكن ادري حينذاك ان السعادة سراب .. وان ليالي الصاخبة تلك ستتحول الى ليل مدلهم ران على نفسي وعذبها ..

لمست في زوجي ميلاً الى « ن » .. وهي فتاة لعوب . .عرفت كيف تخفي مساوئها بنظرات تغري الرائي الساذج ..

وتجاهلت ميله اليها ..

كم من ليالٍ قاسية مرت عليّ وتحملتها ؟ ! ودفعت الثمن من اعصابي غالياً ..

كنت اقارن بين هدوئي وصخبها .. بين انطوائي وانطلاقها .. بين حيائي حين ينظر اليّ رجل نظرة إعجاب وبين استجابتها لنظرته واعجابه ..

لقد اصبحت عضواً لا زباً في سهراتنا ورحلاتنا .. وهكذا اخذت المس حبي الذي كان يذوي في قلبه ليحلّ محله حبها ..

كنت في سكوتي مجرمة ! .. مجرمة لأني طويت ضلوعي على آلامي وكبريائي التي جرحت .. وتجاهلت حبهما ..

اما كان احرى بي ان انبهه ؟ .. ان ادافع عن حبي المهدور ؟ .. عن سعادتي التي ذهبت ادراج الرياح ؟ .. عن آلامي عندما يخاصر تلك المراة ويضمها .. يضمها الى صدره .. ويطوي الليل يرقص معها .. امام عيني ..

انا التي احببته .. انا التي عبدته .. وتوجته ملكاً على قلبي .. وهدرت دمي على مذبح حبه المقدس ؟ ! ..

ومرت الايام .. وساءت طباعه .. وساءت معاملته لي بتردده الكثير على بيتهم .. وسكوتي على جرحي .. حتى اصبح يكيل لي الشتائم إذا ما تعرضت للحديث عنها .. عن انطلاقها .. واغرائها المشجع ؟ ! ..

وكنت الوذ من آلامي الى ابنتي « هالة » اغسل وجهها بدموعي .. واضمها الى صدري التعب ..

واخيراً ثارت ثورتي .. ثارت في ليلة اهنت بها .. اذ كنا في سهرة من سهراتنا الصاخبة تلك في بيتنا ..

استقبلتهم والبشاشة تخفي وراءها غصات اليمة في خافقي .. ومضى الليل .. وانا ارقب غرامه ونجواه لها .. وحركاتهما المخزية .. ثم فقدت اعصابي مع وداعهم .. وتهاويت على اول مقعد صادفته .. وسالت دموعي حرّى على وجنتين قد اضناهما السهر والقلق .. وكان دموعي كانت نذير شؤم عليه ، بعد ليلته الحلوة .. وبدل ان اراه يتساءل حانياً على حالي وبكائي .. اخذ يكيل لي الشتائم والصفعات .. بيديه .. اللتين كانتا منذ دقائق تداعبانها .. وتبثانها الغرام الصامت ..

ازعجته غيرتي ؟ ! .. كثيراً .. وكثيراً ..

وقد قابلت الإهانة بصمت ورضوخ .. ومضى ليلي بين دموع وزفرات وانين .. حتى بزغ فجر جديد في حياتي .. إذ اخذت ابنتي هالة .. وانسللت هاربة منه ومن بيتي ..

مرت سنوات نظمت خلالها امر معيشتي .. ومورد رزق ضئيل من اعتمادي على نفسي .. ثم طويت هذا القلب المجروح على احزانه .. وما اذاقه ذلك الغادر القاسي ..

إذا كبرت يوما يا ابنتي ونضج تفكيرك ، واصبحت انثى يا فعة .. اقرئي كلامي هذا .. والمسي بين السطور العفة التي عاشت معي .. والضمير النقي الذي هداني .. وعلى نوره كيفت حياتي ..

لو تدرين يا ابنتي كم صارعت عوامل الشر في نفسي ! ! وكم حثتني على ان اسقيه الكاس الذي سقاني منه ! ! وان انطلق في جوّنا الصاخب .. واستجيب لرغبات المداعبين ، لاذيقه طعم ليال مريرة تجرعتها صابرة .. وتعود نقاوة نفسي .. وتتغلب على الشيطان والشر .. واعود نقية طاهرة ..

ثم وجدت الحل الصحيح في ان اهرب بك .. واعيش بعيدة عنه وعن حبه .. وغدره ..

سامحيني يا ابنتي وعيشي نقية كما عشت .. واذكري آلام امك واحزانها فتعذرينها .. »

انتهت هالة من قراءة مذكرات امها وقد انتصف الليل .. حين

زحفت الى قربها .. ووجدتها غارقة في نومها كالملاك .. وامتدت شفتاها تطبع قبلة على تلك الخدود الشاحبة .. كانها في معبد تهابه وتقدسه .. ودلفت الى جانبها في الفراش .. واخذتها سنة الكرى وقد أسلمت أمرها الى ما يخبئه لها القدر ..

كنت في الثامنة عشر عندما همس الحب لي اولى همساته السحرية .. إذ نقلني من دنيا واقعي المؤلم الى دنيا زاخرة بالاحلام الحلوة الجميلة .. وكان حبي لصديق والدي « عادل » يفوق التصوّر حين تسرّب الى قلبي وملأ فراغه ووحشته .. واسبغ عليّ من حنانه وعطفه ، ما جعلني اسعد بعد حرمان .. واهنأ بعد شقاء ..

توفيت والدتي قبل سنتين .. وتركتني اعاني مرارة الوحدة وانا افتقد عطف الأم وحنانها .. حرمت من مناداتها ومناغاتها وما احوجني الى الارتماء على صدرها والاستعانة بحبها لي .. وارائها السديدة القويمة ..

وتعرفت على « عادل » .. ووجدت فيه إنساناً مثالياً .. انه في منتصف العقد الرابع .. جميل المحيا .. مديد القامة .. على

سيمائه مسحة من الحزن الدفين .. قد تكون كآبته الحزينة سبب تآلف روحينا ..

كان يشعر بوحشتي .. ووحدتي .. فيعزيني بزياراته المتكررة .. ويسبغ عليّ بوجوده كثيراً من الطمانينة التي طالما افتقدتها نفسي منذ زمن بعيد ..

وفي يوم ثلاثاء .. حمل لي ذلك اليوم بين طياته مفاجأة لم اكن أتوقعها .. جاءنا عادل لنذهب معاً الى السينما .. واعتذر والدي .. وذهبت معه لوحدي ..

جلست بجانبه في الظلمة الساكنة .. وكانت قصة الفيلم تدور حول فتاة فقدت أمها .. وعاشت مكرهة مع زوجة ابيها الظالمة ..

وعشت معها في آلامها .. ودموعها .. وهمس عادل :

ـ لمَ الدموع يا نادية ؟ .. دعيها للأيام فهي مليئة بما يبكي !!

وتحسست يده يدي في الظلمة الشاملة .. ثم تلاقت أصابعنا في عناق محبب .. مسكر .. سرت به النشوة الدافئة في أعماقي .. واشتدت خفقات قلبي .. قلبي المتعب الذي غاض في أعماقي المرتعشة السكرى ..

وتلاشت أمامي مناظر الفيلم في لحظات سعيدة .. لست ادري كيف غفا عنها الزمن الغادر ؟ .

غادرنا السينما .. وجلست بجانبه في السيارة التي سارت بنا في الدروب الهاجعة وانا ثملة من خمرة كأس بدا يداعب شفتي كأس الأمل والسعادة ..

كان صامتاً .. شارداً .. مثلي ؟؟! ..

ثم صحونا من صمتنا هذا عندما توقف امام البيت.. وودعني.. فاسلمته يداً مضطربة تستجيب لوداعه ..

ودخلت بيتي وانا اتساءل .. هل الحب شقاء أم هناء ؟ .. لست ادري !! كل ما ادريه انني كنت خائفة !

ما ذنبي في حبي هذا ايها القدر ؟ .. سل عني احزاني .. وظروفي .. سل عني الليل وسحره .. والظلمات وسكونها ..

سل حياتي الفارغة .. وسله عن حنانه الذي شملني بعد طول ظمأ وحرمان ..

وجاء الخريف .. جاءنا بأيامه الحلوة .. وشحوبه الذهبي .. اليس عجيباً ان يحب الربيع الخريف ؟؟ ..

ثم ما لبث الشتاء ان حرمنا من ايام الخريف الحلوة .. الأيام التي اعشقها .. وارى فيها تحول الجو كتحول كل شيء في الوجود .. حتى العواطف .. حيث اسلمنا تحوله الى الليالي العاصفة والأمطار الغزيرة .. اسلمنا الى العزلة الموحشة .. كنت اعيش مع عواصفه ورعوده .. ووحشة لياليه .. لحرماني من بعض زيارات عادل لنا ..

ومرت ليالٍ في سهاد .. وعذاب .. من انا ؟ ولماذا خلقت ؟ .. هل انا الا خيال معذب يطاف به في دنيا الأحزان هل انا الا شبح ضائع في غياهب الزمن .. هل مررت بدنيا أحد الا وطوتني عنه يد النسيان ؟ .

حياتي مرار وصبر .. وجودي تائه ضائع .. تتقاذفه امواج

الحرمان .. قلبي معذب مسكين .. جسمي خيال شارد في طرقات العذاب .. تبتلعه الدروب وتغيّبه في ثناياها المجهولة ..

ومرّ الشتاء بطيئاً متكاسلاً .. واتى الربيع اخيراً ..

اتى ببشائره .. ودفئه الذي سرى الى نفسي واحاطها بلمسات من التفاؤل .. كنا نتمتع بإشراقة ايامه في جولات نتزوّد من عبق زهر اللوز والمشمش .. ونزيّن بيتنا بأغصانها الفوّاحة العبير .. ذلك العبير الذي كان يسكرنا برائحته في الليالي التي تحنّ لفراق الشتاء .. ويعاودنا فيها الهواء البارد.. فنحتمي منه بين الجدران..

وفي ليلة .. زارنا عادل .. وعشت معه على انعكاس نور خافت .. وسبحت معه في اجواء اسعدتني كثيراً ثم طلب مني والدي ان اعزف لهم شيئاً على البيانو .. وسرت الأنغام مستمدة من ذوب نفسي وروحي ..

وحلقت الى عالي ساحرة .. على اجنحة تتراقص فرحة مستبشرة بصفو الأيام وحلو الأحلام ..

لكن ذكرى امي الراحلة .. كانت تعاودني في احلى اوقاتي .. لمَ لا تشاركني فرحي وترحي ؟ ..

وشعرت بلذعات غريبة لدموع تجمعت خلف المآقي .. تركتهم هاربة الى غرفتي .. وانا اكبت نشيجي وانيني ..

طرق سمعي وقع خطوات تقترب .. واجتازت الغرفة بهدوء .. ثم احسست بيد حانية تتحسس كتفي ..

ادرت وجهي المخضل بالدموع ورايته .. رايت عينيه .. فيهما خيال دموع .. فيهما الشفقة تحنو علي ..

وسكنت الى لمسة يده وقد سيطر عليَ شعور غامر من الراحة بعد الالم ..

ـ ما بك يا نادية ؟ ..

ـ لا شيء ..

ـ انت زهرة يا نادية .. زهرة متفتحة للحياة .. فلم هذه الكآبة ؟ .. لمَ الحزن ؟ . والدك حائر في امرك وقد اراني احترت معه .. هل استطيع تعزيتك اذا قلت لك ان الحياة لا تقف سعادتها بفقد شخص معين ..

الحياة كفاح وامل .. وانت في اول الطريق .. فلمَ تعذبين نفسك ؟ .. استقبلي الحياة باسمة .. فمن كان له مثل جمالك وجمال نفسك الهادئة واحساسك المرهف يحق له ان يتفاءل ويهنأ .. والدك صديقك .. وانا صديق ثان .. فهل يسعدك هذا ؟ ..

واحتضنني الابتسام .. صديقي ؟ .. كم تحمل لي هذه الكلمة

من معان واسعة عذبة .. هفت لها نفسي وتمنتها .. واجبته بصوت تمشى الأمل فيه ..

ـ تسعدني صداقتك كثيراً يا عادل ..

شمل الفرح عينيه .. ثم زحف الى فمه .. وابتسم مرتاحاً لكلامي ..

واخذت بنصيحته .. إذ بدات استشعر اشراق الحياة .. مستمدة من روح امي الراحلة .. وعطفه وحبه زاداً يحفزني الى المسير على الأشواك .. بعدما تخلفت كثيراً عن مثيلاتي ..

كانت اولى الدرجات التي ارتقيتها في سلم النجاح .. هو نجاحي في البكالوريا .. إذ فرح والدي كثيراً به وشاركه الفرح عادل الذي دعانا الى قضاء سهرة في احدى الملاهي الليلية فرحة بهذه البشرى ؟ ! ..

وذهبت انا ووالدي ..

لاح لي خياله خلف طاولة حجزت لنا .. وتساءلت من يا ترى بجانبه ؟ ؟ .. إنها سيدة في العقد الثالث تقريباً من العمر .. جميلة انيقة ؟؟ !

وقدمها لنا :

ـ آمال .. زوجتي ..

وصعقت ..

كان الجبال قد زلزلت على كتفي .. حييتهم .. وتهاويت على اول مقعد بجانبي ..

زوجته ؟؟ .. هل هو متزوج ؟ .. لمَ لمْ يذكر زوجته امامي ؟؟ لمَ لمْ اسال عنه والدي ؟؟ .. وهل كانت شفتاي تستطيعان لفظ اسمه امام احد فيلمس حبي واضطرابي ؟ ..

وتذكرت امي .. انني بحاجة الى مساعدتها وحنانها.. وصدرها الرحب الحاني ..

وبذلت جلّ ما استطيع من الصبر .. في تمضية وقت كانت تمنيني نفسي منذ قليل بكثير من السعادة فيه .. فإذا به اشقى واتعس زمن مرّ علي .. كانت الأشجار تتراقص امام عيني كانها شياطين ساخرة تقهقه في اذني .. كنت ارى الناس حولي اقزاماً بشعة في دنيا غير دنياي .. وموسيقى الجاز تنصب في سمعي باصوات منكرة .. اصوات غبت معها في دنيا كئيبة قاتمة ..

اغمضت عيني وغمغمت :

لمَ خلقتني يا رب ! لمَ القيت بي من عليائك ؟ .. رباه ! مدّ لي يدك الحانية .. فقد ضاق صدري من شكوتي .. من آهاتي .. من اناتي .. خذني إليك .. ارفعني الى سمائك العالية .. لعل في دنياك الرحمة والرافة ..

لعل فيها موسيقى اعذب مما تخيلت .. وبشراً اسمى ممن بلوتهم .. بحثت عن الحب فرايت الخداع .. بحثت عن المودة فرايت القسوة .. بحثت عن الإخلاص فسمعت السخرية تضحك .. حياتي ظلم وجحود .. نسيان وغدر ..

وتيقظ ضميري مع ثورتي .. خفت عذابه ولومه .. ما ذنب زوجته ؟ .. لمَ اطمع في حبه بعد حنانه الذي اسعدني كثيراً ..

عشت لحظاتي تلك في صراع مخيف .. صراع بين حبي وضميري الذي استيقظ من سباته واحال وجودي جحيماً لا يطاق ، ورايت نفسي كالضائع يتخبط في بيداء الحياة التائهة .. لا يدري له مقراً ..

ومرّ الليل .. بطيئاً كعبء ثقيل جثم على صدري ..

ثم عادت بنا السيارة اخيراً .. وغابت في الدروب المظلمة .. حين غابت نفسي في صمتي وشرودي .. ثم قررت امراً .. يجب ان اهرب من حياتي .. من آلامي .. لم اعد احتمل ..

والتفت والدي على قولي :

ـ ما رايك يا والدي في تتمة دراستي الجامعية في أوروبا ؟ .

وشملني حبه وحنانه بكلمات اقرّت رغبتي :

ـ كما تريدين يا نادية ..

لست ادري لمَ سالت دموعي حينذاك ؟ .. اهي دموع الفرح ام الألم ؟ ..

وشغلت بتحضير امتعتي للسفر .. كان يوم الثلاثاء يحمل لي بين ثناياه دوماً المفاجآت .. إذ سافرت في يوم ثلاثاء مودعة والدي المسكين وفي قلبي غصة من دموعه الحانية ..

وغابت مناظر بلدتي عن عيوني .. بلدتي التي طالما احببتها .. والتي امضيت فيها اسعد ايامي واشقاها ؟! ..

واستقبلت طلائع بلاد جديدة .. بلاد لا اعرف احداً بها ..

احمل في اعماقي همساً حنوناً يرافقني اينما سرت .. هو صوت امي .. وحول خواطري عبير ذكرى .. ذكرى حلوة ماضية ..

* * *

ناقمة

من واقع حياتنا تنبع الآلام ..

ومن قسوة القلوب يرفرف الحرمان ..

نتجرّعه قطرة قطرة .. من قساوة الأب .. من غدر الزوج .. ومن ظلم المجتمع ..

المرأة .. هي الكأس الزجاجي الشفاف ، الذي يجب ان يراعى بعناية !!

فكيف نرمي به بين براثن القسوة والظلم ؟ . وننتظر منه ان يظل صحيحاً .. لامعاً ..

كيف تتماسك مادته ؟ .. وهو يتعرّض لألف ضربة ورمية ..

المرأة .. ذلك المخلوق العاطفي الرقيق ! .. كيف تسعد ان عاشت حياتها في ضياع وحرمان ؟ .

* * *

عرفتها جميلة .. باسمة ..

تأخذ بمجامع القلوب اينما وجدت .. تضفي على من حولها البهجة والمرح .. وتنشر في الأرجاء الرنّة الحلوة ، التي تتبع ضحكة امرأة عابثة .. مستهترة ..

تضحك كثيراً ..

تتكلم كثيراً ..

وتتجمّل كثيراً ..

ومن أعماقها تنعكس آلام دفينة .. وكثيراً ما كانت تحاول اخفاء ما تشعر به .. وما يعتريها من سهوم في بعض الأحيان ..

واتاحت لي الأيام .. فرصة التعرّف على طباعها .. ولمست آلامها الخفيّة .. في تلك الدقائق التي يعتريها فيها شحوب .. وصمت .. إذ تروح في غفوة عمّن حولها .. ساهمة .. تنبش بين ماضيها .. وقد أصابها ذهول مطبق ..

كنت أراقبها بعين تتلهّف لمعرفة ما وراء استهتارها المصطنع ..

كأنها تنتقم ممّا عانته في الماضي ..

وأمنت جانبي .. ثم جمعتني بها الظروف في يوم .. كنّا به وحيدتين ، في حديقة داري ..

حين بدا النهار يضيع بين احضان الظلام الزاحف ..

واخذ النسيم يداعب خصلات شعرها الأسود .. المنثور على جبينها وكتفيها ..

زفرت زفرة حرّى .. حملها الهواء فرحاً .. وطار بها الى الشجر .. الى الأغصان التي اخذت تتمايل وترافق وجودنا ..

ثم راحت عيناها تتيه في السحيق من ماضيها .. وصمتت ساهمة ، كأنها لوحدها .. لا ترى أحداً ..

ثم جاءها صوتي الحاني :

ـ إن وراء مرحك المصطنع يا « ناهدة » آلاماً مخفية .. في اعمق اعماقك ..

فكم تحلو الصداقة ، حين تفتحين فيها قلبك وتقولين .. ما بك ؟ .. وما قاسيت من ظلم ؟ ..

نظرت اليّ بعينين غشيتهما دموع وكآبة خرساء ..

قالت :

ـ نشأت محرومة من كل شيء ..

من العطف .. من الحنان .. ومن الحب ..

نشأت دون ان اتذوّق لفظ كلمة « امي » ..

كنت اسمع اترابي ينادون « ماما » .. وانا ؟ .. محرومة تذوّقها ! ..

كنت وحيدة مع اب طلّق امي .. وتزوج عليها امراة اخرى .. امراة ظلمتني .. واذاقتني حلاوة الطفولة .. مرارة وحنظلاً ..

كانت ايامي معها سوداً حالكات.. يودّعني النهار بضربها المبرح.. ويستقبلني الليل بضرب والدي لما تهمس في اذنه من تهمات ! ..

وكانت غرفتي الملجأ الأمين .. ممّا الاقيه في يومي وليلي .. اهرب الى احضانها .. وارتمي على فراشي منتحبة .. متأوهة .. ضائعة في بحر الحياة ، الذي كنت أراه شقاء .. وعذاباً .

كان يخيفني المستقبل المجهول.. إذ اتصوّره شبحاً .. مفزعاً .. ينشر اذياله حولي .. ليطبق على انفاسي ويخنقني ..

ومرت ايامي بطيئة .. متكاسلة ..

وتخطيت عتبة السادسة عشر .. وانا كافرة بالحنان .. بالحب الذي افتقدته .. ووجدت بفقدانه طريقي مفروشاً بالأشواك والآلام..

بدأت تلحّ عليّ رغبة جامحة .. في معرفة مكان امي .. واين هي ؟ ..

سألت .. وبحثت .. ووجدتها ..

وجدتها قد تزوجت.. ودفنت ايامها مع رجل سكير .. شرير.. تجترّ آلامها .. وذكريات غدر ابي لها بين جوانحها ..

التجأت الى امي اعيش معها .. هاربة من سجن ابي وزوجته ..

معتقدة بأني اصلح حياتي بذهابي الى من افتقدت حنانها .. وحلو الحياة بقربها ..

لن انسى ما حييت عطفها .. وحبها لي .. وقد اسعدني كثيراً بعدما حرمت منه طوال عمري المعذّب ..

لكن الشقاء حليفي ..

عاد يطل عليّ من وجه عمي « زوج أمي » .. إذ أخذ ينظر اليّ نظرة رجل الى انثى ..

انثى بدات تتفتح للحياة .. كبرعم الزهر ..

واخذ يحاول لمس جسدي .. في كل مناسبة تتيح له ذلك .. في افعاله العبث الجريء .. والوقاحة الفاضحة .. لا كما هو العم المحترم ..

وتجاهلت غايته ..

وقد اخذت ترسب في اعماقي رعدة .. وخوف ..

وظننت انني ربّما اكون مخطئة في حكمي على تصرفاته معي .. او ربّما يردعه تجاهلي لحركاته .. وافعاله المخزية ..

كنت انزوي في غرفتي كلما رايته ..

وفاجاني يوماً بدخوله عليّ في هداة الليل .. وقد استسلمت الى الكرى .. والى الاحلام العذبة التي تداعب الفتيات في سن جميلة .. نضرة .. من العمر ..

لم ادرِ .. إلا ووحش كاسر يهجم عليّ .. وقد لعبت الخمرة في راسه .. وفاحت رائحتها في غرفتي ..

إذ اخذ يعبث في جسدي ثائراً .. مهتاجاً .. حانقاً ..

ورحت اقاومه بضراوة .. حتى يئست من تمكنني التملّص من بين يديه المجرمتين ..

صرخت مستغيثة بأمي التي هرعت الى غرفتي .. وراته ! ..

ثم خرج من غرفتي متوعداً .. مهدداً ..

ومرت ايام .. عشنا فيها .. في صمت ..

انا في حيرة .. وامي في الم .. وهو في صمت ..

* * *

وخطبت ..

وقررت ان اتزوج لاهرب من هذا الجحيم .. وانسى ماعانيت ..

وتزوجت ..

ثم تناسيت ايامي الماضية .. وبدأت صفحة جديدة من الحياة..

كان زوجي رجلاً طيب القلب ، لدرجة التساهل في كل شيء.. حتى في مجالسة رفاقه ..

رفاقه الذين اخذوا ينظرون اليّ كأني امراة متعة ؟! ..

كم تحملت من مداعباتهم الوقحة .. عندما تلعب الخمرة في رؤوسهم .. ويبدأون في الرقص ..

وتبدأ اصابعهم تعبث في جسدي ..

وفي يوم ..

ثار عليّ زوجي ، لأني صفعت صديقاً له .. لجراته الوقحة معي .. كانت الخمرة قد ذهبت بتفكيره ليتفهّم .. لمَ فعلت هذا ؟..

وطلقني ..

إذ عدت الى امي الذي توفي زوجها .. وتركها وحيدة ..

واخذت اتعلم مهنة الخياطة ..

وفي خلال سنة ، كنت استقبل الزبائن .. واخيط لهم احسن الثيـاب ..

وصفت الحياة قليلاً .. وابتسمت في وجهي بعد عبوس دام طويلاً ..

ثم تعرفت على « احمد » ..

كان اخاً لصديقة لي .. واحببته .. ووجدت فيه كل ما افتقدته في الرجال ..

لقد زيّن حبّه ايامي بالآمال .. التي بدات تنمو في الخافق الموجع ..

لكن الحب .. كان يغزو قلبي فقط ؟ ..

اما هو ! .. لم استشف منه ، ما ينبيء بانه يحبني !! او يشعر بحبي له !! ..

سوى حنان كان يحوطني به .. وملاطفات في افعاله .. لا تتعدى المجاملة ..

ومنعتني كرامتي من البوح اليه بحبي .. ووقفت حاجزاً .. منيعاً .. ومتراساً قوياً .. في وجهي ..

ثم اغلقت هذا القلب على ما به ! ..

ومع مرور الايام .. لم ارَ اية بارقة للأمل في حبي .. من جهة احمد ..

« احمد » .. الذي احببته من كل قلبي ..

كم وكم تمنيت ان يشعر بي كانثى ؟! ..

ولمَ لا ؟ ..

الست جميلة ؟ .. وحار الجواب في فمي ..

ثم جاءني البريد بتذكرة تحمل الدعوة لزواج احمد ..

انزويت في وحدة قاتلة .. اطوي الأيام على قناعة في داخلي باني .. لن اوفق في حياتي ..

فكل الأمور تسير بعكس ما اتمناه منذ ما خلقت ..

وخطبت مرة ثانية ..

اجبرت على ان اقبل الزواج .. فالحياة قاسية .. والمجتمع ظالم لا يرحم ..

لسان الناس لا يصمت .. واقاويلهم لا تنتهي ..

واصبح نهاري عمل وخياطة .. وليلي سهد وعذاب ..

نهاري تعب .. وليلي شقاق مع زوجي هذا !! ..

إنه يريد كلّ ما احصل عليه من النقود ..

ويئست مرة اخرى من حظي في الزواج .. يئست من ابتسام الايام لي ..

وطلبت الطلاق .. وافترقنا ..

وقررت هذه المرة الا اتزوج .. اذ لن تفلح اقاويل الناس في ردعي ..

* * *

ونقمت على الرجال بانواعها ..

منهم الظالم .. ومنهم الغادر ..

منهم القاسي .. ومنهم الناسي ..

وقررت .. انه يجب ان اذل اي رجل اصادفه ..

يجب ان انتقم لنفسي مما عانيت ..

الست جميلة ؟ .. ولم يحبني احمد ؟ ..

الست مخلصة لمن طلقني ؟ ..

الست شريفة لاني لم اقبل مداعبة عمي ؟ .

ثم الست بائسة ؟ .. وقد عذبني الأب والخالة ..

سانتقم من كل هؤلاء .. من الرجال كلهم .. دون استثناء ..

الى هنا انتهت « ناهدة » من قصتها ..

وغيبتني الظروف عن حياتها .. فقد كنت مسافرة .. في بلد بعيد .. وعدت اخيراً ..

الى بلدتي .. وموطني الحبيب ..

ولعبت بي الرغبة في ان اسأل عن « ناهدة » .. وعن مصير الرجال بين يديها ..

واتصلت بها هاتفياً .. لافاجئها بمقدمي ..

إذ اجابتني فرحة :

ـ لقد وجدت يا عزيزتي اخيراً .. من احبه ويحبني ..

وجاءني صوت بكاء طفل صغير ..

قلت :

ـ مبروك يا « ناهدة » ..

* * *

الا ترون معي ان الرجل قد ظلم « ناهدة » كثيراً ؟..

ظلمها اباً ..

ظلمها عماً ..

ظلمها زوجاً ..

وظلمها حبيباً ..

وإن لم تجد في النهاية من تحبه ويحبها ؟ .. فمـاذا يكون مصيرها ؟ ..

مصيرها امراة فاشلة حتماً .. تلعب بقلوب الرجال لتنتقم !!..

فتظلم نفسها .. ويظلمها المجتمع ..

الا ترون ايضاً .. ان الغرابة في وجود الدواء في بيت الداء !؟.

ما اقسى حكمك ايها القدر ! ..

سكونك يا ليل يعزّيني .. وظلمتك تشملني ..

أستمدّ منك شجاعتي وجلدي .. فتنطلق نفسي في اغوارك السحيقة .. محلقة في غياهب المجهول ..

سكون ظلمتك توأم نفسي القاتمة الحزينة ..

نكرة ضائعة في سحرك المغري ! .

سحرك يا ليل .. الذي ينشر ظلاله على النفوس المعذّبة .. فينقلها من ضفة الآلام الى ضفة الآمال .. وهل يستطيع الانسان العيش بدون امل ؟ ..

في الأمل جمال الوجود .. وسحر الحياة ..

ولكن املي يا ليل ؟ .. اين املي ؟ .. اين ايامي الخوالي ؟ .. اين حبي ؟ .. اين سعادتي التي كنت اعيش على امل في تحقيقها ؟..

اين بلدتي ؟ .. واين شاطئي الحبيب ؟ ..

اين « سعاد » ابنة خالتي .. ورفيقة صباي ؟ ..

كنت في الخامسة من عمري ..

وابتدات الخيالات تتركز كصورة في زوايا الذاكرة ..

ورايت امي مسجاة على فراش الموت .. تشكو علة في صدرها .. الخافق .. التعب ..

امامها امراة .. هي « زوجة ابي » الثانية .. ترعاها وتطوي الليالي مع والدي ..

اما انا .. فاني امكث في غرفة والدتي المريضة .. استمع وجلا .. رغم صغري .. الى انفاسها المتهدجة ..

ويمر ليل .. ويأتي ليل ..

وانا في انتظار شفائها .. ورؤيتها كالمراة الاخرى .. تتنقل ضاحكة في زوايا بيتنا القديم .. لكن الآمال والأمنيات كانت ضئيلة!.. كصغر عمري وقتذاك ..

وعدت في يوم ..

ووجدت غرفتي خاوية .. ترفرف فيها اجنحة الغربان .. وتنعق في سكونها اصوات منكرة .. عندها شعرت باني فقدت كل آمالي وامالي بفقدان شخص عزيز رحل ..

ولملمت شتات نفسي في تلك الفرفة الموحشة .. على زاد تلك الدقائق .. والساعات التي كنت اشتشف منها انفاس امي ووجودها بجانبي ..

ورانت الوحشة والكآبة على روحي مع مرور الايام .. والسنين ..

لقد عوضتني تلك المراة « زوجة ابي » قليلاً من الحنان .. لكنني .. كنت احس ان بيني وبينها من الجفاء .. ما بيني وبين الأفق من مسافات ..

ومرت ايام الطفولة .. بطيئة .. قاتمة ..

واخذ جسمي وإدراكي ينموان مع الايام .. ثم قررت ان اصحو من كبوتي التي رسمت ظلالاً قاتمة على نفسي .. وابتدات اجدّ في دراستي .. لابني مستقبلي معتمداً على نفسي .. ولاكفيهم شرّ إعالتي ..

بدات اتردد على بيت خالتي .. اتنسم عندها ذكرى امي الراحلة .. وكانت « سعاد » ابنتها في مثل سني .. بذلك اسبلت على ايامي الماضية ستار النسيان .. حين اخذت اتردد على « سعاد » لنتشارك الدراسة معاً ..

وانجابت وحدتي الماضية وحيرتي الحاضرة حين ابتدات عواطفنا في النمو ..

كنا لا نفترق إلا في المساء .. اذ كان الفراق ساعة النوم حلواً .. لانه كان يضاعف الشغف في صباح اليوم الثاني ..

ولمست حبي في عيني سعاد .. ولمست حبها في عيني ..

وقد تفتحت آمالي واحلامي .. وتذوقت بهجة الأيام وجمالها .. إذ غمرني لطفها ، واحسست في وداعتها ما عوضني عن طفولتي القاحلة القاسية .. وذاب أمام حبها خيال أيام عاشت كثيراً في اعماقي واشقتني .. حين كانت عيوننا تتعانق في نظرات من الحب الواله الصامت ..

وكان يوم ..

طلبت مني بصوت مرتجف أن نتلاقى على الشاطىء .. عندما يغفو أهلنا .. وكان الشاطىء قريباً من بيتنا وامضيت سحابة يومي، في انتظار ما تفاجئني به شفتاها من عذب الكلام ..

وذهبت في الموعد ليلاً .. لمحتها عن بعد .. يتوسد جسدها الرمال .. وهي غارقة في بحار من الأفكار !

تحركت من مكانها على وقع خطواتي وهي تقترب . ثم نادتني هاتفة :

ـ هل جئت اخيراً يا « هاني » ؟

جلست بجانبها .. وقد منحني هدوء الليل وسكونه .. وقفر المكان ، جراة وشجاعة استنكفت عنها سنتين ..

اخذت بيديها بين يدي .. وهتفت :

ـ سعاد !

واستسلمت لندائي .. إذ ارتمت على صدري منتحبة ، متاوهة ..

زحفت يدي الى وجهها تلامسه .. وتمسح دموعاً جرت على وجنتيها .. النضرتين ..

– لمَ تبكين يا سعاد ؟ .. سعاد حبيبتي .. انت لي وانا لك ، فما يبكيك ؟ ..

اجابتني والألم يعتصر قلبها الغض :

– يريدون أن أتزوج يا هاني !! ..

غامت عيناي في ظلمة عارمة ، مع ظلام الليل .. واذهلتني المفاجأة !!

يزوّجونها ! ...

لم اكن أتوقع ان ليلنا الحالم هذا .. سيكون ليل عذاب وسعير يحرق اضلعي ..

وتسللت من بين يديها المتشبثتين بي الى قرب الماء .. ثم رحت في دوامة من الأفكار مع هدير الموج وعتمة الكون .

صافح صوتها اذني :

– هاني .. عد إليّ .. عدْ اليّ اني هنا .. هاني بربك اسمعني ..

وجررت جسمي متهاوياً .. وعدت اليها صامتاً ، انفث الأنفاس من صدري بزفرات كانت تصافح عينيها الباكيتين .. وصوتها المتهدج ..

قالت :

– لا تزد آلامي بآلامك .. لنفكر معاً ، لنفكر في نفسينا ، وحبنا .. ساعدني يا هاني ! فلن اتخلى عنك ، وعن حبنا وسعادتنا .. لن أكون لسواك ولو اطبقت علي الأرض . إلا اذا اردت انت ؟ ! ..

أجابها الحزن في ضعف صوتي :

ـ ما حيلتي يا سعاد .. ما حيلتي وأنا ابن السادسة عشر ، وليس لي أم ترحمني .. هل يساعدني والدي الذي اذاق أمي مرّ العذاب ، وتزوج عليها امرأة أخرى ، ثم خلفها للأمراض .. ورماها الى الموت البطيء القاسي ؟ .

ما هو دخلي ؟ .. ما هو مصيري ؟ .. لأرفع صوتي عالياً ، واقول :

ـ سعاد لي وليست لأحد ..

فكري معي ياسعاد ! . فكري بعقلك لا بقلبك ، سيبقى حبنا ذكرى .. ذكرى حلوة ناعمة نتزوّد منها للأيام الآتية .. تزوجي يا سعاد .. واطوِ حبي في زاوية من قلبك .. كما سأطوي ضلوعي، وقلبي على حبك وذكراك .

* * *

اعقب تصريحي هذا فترة صمت ثقيلة .. مروعة ..

حتى تراءت لي كجدار عال يصعب تسلقه .. ونهضت واقفاً ، وانتشلت يدها المتهاوية على حضنها :

ـ هلمي بنا ياسعاد .. فقد انتصف الليل ، ويحسن بنا أن نعود ..

اسلمتني يدها .. إذ قامت متهالكة يا نسة ..

وسرنا .. وخلفنا خطوات على الرمال ، ما لبثت الرياح أن اضاعتها في معالم النسيان .. كما ستنسى حبنا الأيام .. وودعتها وانا أكبت الم الفراق ..

لفتني الدروب وفي اذني رنين صوتها .. وفي جنبي رعشات اليمة ، اطويها واطوي سعادتي بين صفحات الأيام المجهولة .

دخلت غرفتي بائساً ، شقياً .. إذ التقطت اذناي همهمة انفاس تتردد ! ..

وعادت بي الذاكرة الى طفولة مرت بي ، قرب والدتي التي كانت روحها تشاركني المي ، والتي اسمع حنان صوتها في همسات مع ذبذبة الريح ..

لم مزقت الأقدار حبي ؟ وصفعتني بهذا الحرمان الذي سيخلفني للضياع ، في بحار الآلام والعذاب مرة اخرى ..

أأعود لوحدتي ووحشتي ؟ ..

أأعود بعدما تذوقت صفو الأيام ، وعشت مع جمال الحياة وحبورها ؟ ..

هل انادي سعاد ، واسير الى بيتها .. وانا واهم بلقياها ؟ .. ثم أعود بخفي حنين ..

عشت اياماً طويلة في ظلمة داكنة .. وسمعي يلتقط كلامهم عن قرب زواج سعاد .. ثم تحديد يوم « العرس » .. وجاء ذلك اليوم الفاصل بين حياتي وحياتها .. وقد احاط بي سكون وشرود..

تطاولت خيوط الشمس الراحلة .. ثم رسمت افقاً وردي اللون ، حين التجأت الى شاطئي الحبيب ..

وزحف الليل يهزم تلك الخيوط وينشر سواده بدلاً منها .. ولفتني ظلمته مع صوت الزغاريد التي اخذت تدوي في اذني ..

تمددت على الرمال .. انبش باصابعي سعادة ضاعت هنا على الرمـال ..

إذ كانت يداي تقبضان على حفنات الرمال الناعمة .. فتتسلل هاربة من بين اصابعي .. وتستقر على الرمال ثانية ..

لا ادري ما مرّ من الوقت حينذاك ! .. كل ما ادريه اني شعرت بلسعة من الهواء البارد ، تصافح جسدي المسجّى .. والفجر يبدأ في البزوغ ، ويبدأ في تسجيل ايام شقائي ووحدتي ..

ووجدت نفسي في مكاني ، كما ودعت الشمس واستقبلت الليل ..

نهضت ، وسرت بخطوات ضعيفة ، اجرّ قدميّ جراً الى مصير مجهول .. لاحت لعيني مناظر البيوت مع بيتنا الموحش في الواجهة .. ووجدت نفسي قد عدت الى جحيم احبس فيه ..

ودخلته مطروداً من دنيا سعادتي وهنائي .. ثم انزويت في غرفتي خوفاً من عيون تتساءل ما بي ؟ ولمَ هذا الشحوب المروع ؟..

كيف استطيع ان اصف اياماً مرت عليّ كدهور طويلة من الهموم والآلام .. وكنت كلما ضعفت مقاومتي لهذا القلب ، اسير الى شاطئي حيث امكث هناك ساعات .. وساعات ، في مكان سمعت فيه صوتها ينادي ويهتف من الاعماق : لن اتخلى عن حبنا .. لن اهدم سعادتنا ..

واهدىء قلبي باللوم عليّ .. إنه ذنبي ! .. انه عقلي ! الـذي تكلم واقنعها بالزواج ..

وكنت انهي جولتي هذه بزفرة حرّى تتساءل :

ـ هل انساها يوماً ..

***

ومرت الأيام ..

ووجدت نفسي شاباً يافعاً .. رفيع العود .. قد خلفته الأحزان شبحاً يسير .. وجاء يوم قرّر فيه والدي مصيري .. إذ اصبحت مهندساً ناجحاً في اعمالي ، بائساً في قلبي ..

وكان مقر عملي في بلدة غير بلدتنا .. اقمت فيها بعيداً عن والدي وزوجه ، وعن منبت آمالي وآلامي .

ولقد زادني البعد شغفاً بالتساؤل عن اخبار سعاد ! هل نسيتني ؟ .. هل اسعدها زوجها ؟ ..

زوجها الذي لم تلمحه عيناي .. ولم اقصد التعرّف عليه ، ورؤيته معها !! .. كما لم تلمحها عيناي منذ فراقنا على الشاطىء .

واشتد بي الحنين بعدما أصبحت رجلاً يشار له بالبنان .. ودفعني شيء مجهول الى السفر .. الى بلدتي الحبيبة ، وسارت خطواتي متجهة الى بيت خالتي ..

طرقت الباب ، واجابني صوتها واهياً ! .

صوت قد خلفته الأيام وسطرته برنة هدوء حزين ..

وكان عناق ! وكان بكاء ! .. حتى هدأ أوار الشوق بيننا ..

وسألتها بكلمات متعثرة على شفتي :

ـ كيـ . . ف .. سـ..عا .. د ؟ ..

أجابتني بدموع تجمعت في المآقي :

ـ اما سمعت اخبار سعاد ؟ .. انها في المستشفى يا هاني .. تعاني آلاماً فظيعة من مرض الـ...سل ! ..

دارت الدنيا بي .. كأني قذفت من علو شاهق !..

سعاد في المستشفى ؟.. سعاد مريضة ؟ .. حبيبتي ، ورفيقة صباي ؟ . وفي مرض السل ؟ ! ..

كيف مرت ايامي وانا اتجاهل السؤال عنها .. كلما هاجني الشوق ؟ ..

حقاً ! إنني لغادر !! ..

لكن عذري أن ادعها تهنأ في زواجها ، وتنساني ..

ثم افترقنا بعد ان تواعدنا على الذهاب الى المستشفى ..

وذهبت اليها وانا واجف القلب محطمه .. ودخلت غرفتها ورايتها ..

رايتها كالشبح الضائع مسجاة على السرير .. وادارت عينين قد اضناهما المرض .. وصعقت !

انا امامها ؟ .. بعد مضي تلك السنين الطويلة .. وهي امامي مريضة شاحبة ! ..

لم يسعفني تجلدي .. اذ ارتميت على يديها اقبلهما ، واغسلهما بدموعي الغزيرة ، وانا اعتذر اليها عن غيابي الذي طال .

كانت تجيبني بانفاس متعبة .. ودموع سالت على خدين نحيلين .. قد احالهما المرض الى صفرة واهية .. وشاركتنا خالتي بكاءنا ونشيجنا .. ثم ربتت على كتفي :

– لم اكن اعلم يا هاني انكما متحابان ! حتى اعترفت لي سعاد على سريرها هذا .. بما كان بينكما .. وبانها تتمنى ان تراك ولو مرة واحدة قبل موتها .

وغالبت الماً فظيعاً حاق بي .. وانا اعيش مع سعاد لحظات قاسية من الالم والشوق .

وحرت بما سافعله بعد رؤيتها مريضة .. ومع عذاب ضميري الذي اتهمني بانني السبب في كل ما حصل لها .. قررت المكوث بجانبها .. وان لا اتركها تذوي وتموت ..

قضيت اياماً بجانبها .. وتعرفت على ذلك الزوج الذي سلبها مني منذ سنوات ..

وتجاهلته .. وقد تساءل كثيراً عن اهتمامي هذا ؟ .. بعد مرور سنين ولم يسمع بي ..

وتجاهلت تساؤله ايضاً .. لاتزود من رؤيتها بعدما فرضت عليها الزواج من غيري ..

ويبدو ان القدر قد اشفق علينا ثانية .. إذ وهبها من الحياة بضعة أيام .. كانت فيها فرحة .. منتعشة .. يداعبها امل الشفاء برؤيتي بعد طول غياب ..

وجاء يوم ..

ذهبت اليها .. فلم اجدها .. ووجدت سريرها فارغاً .. على الوسادة مكان راسها الذي احنى عليها طويلاً .. وعلى المشجب ثوبها الذي كانت ترتديه ، وتعانقني طياته .. ويصافح صدري وملابسي ..

تحسست اصابعي ذلك الثوب كثيراً ، وانا اتساءل عن سر القسوة والحرمان في الحياة ..

ثم ارتميت على سريرها .. اغمر وجهي وجسدي بين ثناياه .. انشب اصابعي في قماشه ..

علني احصل على شيء منها ! .. فكنت كما ضممت الرمال يوماً وانفلتت سعادتي وحبي من بين اصابعي ..

سعاد ! ..

سعاد الجميلة .. الناعمة قد ذهبت الى ما وراء الأفق .. لم يبق لدي من آثارها الا غصات اليمة تعتصر قلبي ..

ففي موت سعاد .. اضمحلال ابتساماتي ..

وفي موت سعاد .. انزواء افراحي ..

روحي معك يا سعاد .. روحي ترفرف كل ليلة مع الأسى قرب قبرك ..

ترفرف وهي تنوح على نغمة كانت شجية ثم اصبحت شيئاً صامتاً في باطن الأرض .

ودعت طفولتي برحيل امي .. وودعت صباي بزواج سعاد .. وها انا اودع عامي الثلاثين بموت سعاد ..

اواه ! من الذكرى .. ومن حياتي التي سلخت ايامها في الشقاء والحرمان ..

وانا اعيش على ذكرى سعاد .. انا الغادر القاسي ..

* * *

وتمر حياتي على حنين الى سعاد .. فأطفئه بسفري اليها ومعانقة قبرها .. وإرواء ترابه بدموعي .

عسى هذه الدموع تنبت زهرة ..

فتكون كقطرة الندى التي يسكبها الفجر بين أوراق الوردة ..

هذه الزهرة هي روحي يا سعاد ..

إنها ترفرف دوماً حولك .. وعند قبرك ..

* * *

انتظار

دقت الساعة معلنة انتصاف الليل ..

سرت دقاتها عبر الحديقة .. وأنا في مكاني على الشرفة ..

واجمة .. شاردة في الفضاء .. في المجهول .. في دقائق الأثير ..

في غياهب الظلام .. في الأعماق السحيقة .. في كنه الوجود ..

سكون يشملني ..

على شفتيّ صمت .. وفي حشاي صخب ..

بين شفتي لحن اغنية لم يتم ! .. وفي الخافق آلام لا تحتمل !..

احببته والقلب غض صغير .. في الحنايا رعشات هائمة ..

رعشات من الأمل .. من الخوف .

إني اذكر تماماً كيف كنا صغيرين في بيت واحد .. نلتف مع اهلنا حول المذياع .. ونستمع الى الأخبار من هنا .. وهناك ..

كنت اشعر رغم صغري بذلك الخوف الذي كان يعتريني من التقاط اذنيّ مع نمو إدراكي الصغير .. اخبار الحرب ..

اخبار اجتياح جيوش هتلر للمدن والبلاد ..

كنت ارتعش والتصق به .. واتلمس من يديه موئلاً يعيننني ..

وابتدات هزيمة العاتي .. ما اشد وقع الفرحة علينا يومذاك ..

فرحنا لهزيمة القوي الظالم .. لهزيمة من شرّد وعذب آلافاً من البشر ..

من اذاقهم حمم النار ..

وانتهت الحرب ..

وعادت ايامنا صافية هنيئة ..

ولكن ! ايّ صفاء كنت اتوهمه ؟ رغم صغري .. والمستعمر في بلادنا ، يعيث فيها فساداً وظلماً .. وتقتيلاً ..

هل يستطيع ذلك الراس الصغير حفظ كل ما آله من المستعمر؟. كيف عذّب هذا ؟ واعتدى على تلك ؟ .. كيف كان يبعثر جيشه المختلط بين المدن والشوارع ..

وتنفرد تلك الفئات المخيفة منه تتلمس الدناءة والشهوة امام كل باب منادية :

ـ فاطمة .. هنا فاطمة ؟ ..

كان كلمة فاطمة .. هي عندهم كل شيء يحصلون عليه ..

وما علموا ان كل اسم عربي .. مقدس لدينا ، ندفع له الدم الغالي من أبنائنا وبناتنا ..

إني اذكر تماماً كيف كنت يوماً ..

كنت ارتجف خوفاً بجانب والدتي ، وهي تطل من النافذة ، تنتظر عودة ابي .. وتقرأ له الآيات القرآنية .. والأدعية .. لينجو من شرذمة من الجند ، تبعثرت في حينا سكارى .. يتحرشون بكل غادٍ ورائح .

كان لساني الصغير ينطلق داعياً .. خوفاً على والدي بكلمة :

ـ يا رب ! ..

والتفت الى امي اسألها من هؤلاء ؟..

قالت :

ـ استراليون ..

وارتعدت .. لأن كلمة « استرالي » كانت مبعث خوفنا الشديد ..

سمعت لهاث امي وخوفها متجمعاً .. حين قالت :

ـ هذا هو .. احمه يا رب ..

جاء والدي وقد دخل السكارى منعطفاً يطرقون باباً وينادون : فاطمة ! ..

ووجمنا ننتظر صرير الباب .. ودخل والدي وتنفست امي الصعداء ..

اخذت بيدي ووضعتني في سريري وقالت :

ـ نامي يا سهام .. لأرى والدك ..

ثم استسلمت لسنة الكرى والأحلام المخيفة .. المزعجة ..

* * *

ومرت الأيام ..

وسارت حياتي مع ابن عمي ، في نفس البيت .. ثم انتهت دراستنا ونلنا « البكالوريا »

إذ التحق بالكلية العسكرية .. غاب عنا خلالها سنتين ..

كنا نتراسل في فترات متقطعة .. حتى جاءنا يوم تخرجه ، وقد ارتدى بذته العسكرية .

وكان لقاء بعد فراق ..

وكان شوق يتجدد ، ويعود يدرج في الحنايا والقلب ..

ونسينا طفولتنا ..

نسيناها في استقلال العرب وانطلاقهم في آفاق جديدة .. وانبثقت القومية العربية .. وتفهمها كل صغير وكبير ..

لقد صفت لنا الأيام وعادت الابتسامة تشرق على وجوهنا السمر .

ونحن شابان يافعان .. انا في الجامعة .. وهو في الجيش .. يفصلنا النهار ويجمعنا الليل ..

كان في سهراتنا يتلمس كمانه ويعزف لي .. اشواقه وحبه على الأوتار الرفيعة الناعمة .

كانت مقاطع اللحن همس نجوانا .

وعلى سلم الموسيقى ارتقى حبنا ..

ارتقى وصعد الى ذروة الهناءة ..

بين تلك الانغام السماوية .. التي تحمل المرء ليحلق في موجات الاثير نما حبنا وترعرع .

نما منذ الصغر ..

وعلى شفاهنا ندى البراءة والطفولة .

كان يعزف لي واغني له ..

يعزف ويعزف .. حتى اشعر بخيالي ملاكاً يطوف جنات النعيم ..

وتتفتح شفتاي لتعبر عن مشاعر نمت في قلب خافق له ..

سار حبنا في دروب مفروشة بالورود والرياحين ..

غردت فيها الأطيار .. وزينتها الأزهار . واسكرها عبق النرجس والبنفسج .

ولم ندر آنذاك ما خباه لنا القدر ؟ ..

إذ التقطت آذاننا اخباراً انتشرت في البلاد ..

نبأ العدوان الثلاثي على مصر ..

على بلد عربي ..

على بلدنا ..

وتطلعت الى ابن عمي .. يملؤني خوف وتساؤل .. وانسللت الى غرفتي ، وفتحت الشرفة .. ورايت القمر يطل عليّ .. يسكب في اعماقي حنانه المسكر .. ورفعت عينين قد ملأتهما الدموع .. وهمست :

ـ رباه ! من اعمق اعماقي الحزينة اصرخ إليك ..

من اغوار ظلمة الليل استعين بحنانك .. فاسمعني ..
واجابتني الأعماق بدقات خفيفة على باب غرفتي ..
فتحت الباب ورايته ..
قال :
ـ انا على السطح انتظرك .
اسرعت الى شالي احتمي به من برودة الجو .. ولحقت بـه مسترقة الخطى ..
ووصلت ..
وصلت الى شاطىء الأمان .. الى ذراعيه ..
وضمني بقوة .. وحنا خده على خدي بلمسات ناعمة .....
ثم اخبرني عن وجوب سفره الى الحدود السورية .
وجمدت أوصالي .. وسرى الصقيع الى اعماقي ..
نظرت اليه بعينين دامعتين .. يملؤني خوف من بعده .. من فقده .. من فراقه ..
وكانت همسات ..
وكانت عهود ..
وكانت وعود ..
ثم قال :
ـ انتظريني يا سهام ! ..
انتظريني.. فسآتيك مكللاً بالنصر والنجاح.. ونعلن خطبتنا ..
وسحب خاتماً في اصبعه .. والبسه لاصبعي .. مؤكداً حبه ، ووعوده ..

ووعدني بأن يناجيني .. ويذكرني في الساعة العاشرة من كل مساء ..

ثم قال :

ـ إن رأيت القمر .. فهو رسول حبي ..

وان كنت نائماً .. سأطوف معك الأحلام ..

وان كنت بين الحمم والنار .. سأذكرك واستمد من حبنا معيناً يشجعني على المضي في النصر .

ثم افترقنا ! ..

افترقنا على الم وعهد .

ودخلت غرفتي ناقمة .. على البشرية .. على الوجود .. على الحرب .. على المستعمر ..

ذلك الكلب البغيض الذي لا يخرس فمه .. بل يظل منذ طفولتي يعوي ..

حتى الآن تحرك ليأخذ مني حبيبي ..

لمَ لا يعيش البشر في أمان ؟ .. في سلام ؟ ..

لمَ هذا الحقد البغيض ؟ ..

لمَ خلقت هذه النفوس الدنيئة ؟ ..

أيقتل الإنسان اخاه الإنسان ؟ ..

لمَ لا يتركوننا نعيش كما نريد ؟ في أرضنا .. في بلادنا ..

اطماعهم لا تنتهي ! وجشعهم في ثرواتنا وخيراتنا نحن العرب لا ينضب !

سننتصر ..

سننتصر عليهم ! ولن ندعهم يمرّون في شوارعنا ، واحيائنا يعيثون فيها فساداً .. كما عاثوا في الماضي ..

سيمرون واجسادنا كتلاً حمراء تحرقهم ، وتحرق جيوشهم ، وتبيدها عن آخرها ..

* * *

وسافر ابن عمي ..

وعشت اياماً حالكة .. انتظر اخبار مصر .. واخبار حبيبي ..

مع ذلك كنت فرحة ..

فرحة لاستبسال العرب وصمودهم امام ثلاث دول !

دولة مزعومة .. دولة العصابات .. ودولتان كبيرتان ! ..

وصمدت مصر ..

وصمد العرب ..

عشنا اياماً مضطربة على أعصابنا ..

على إيماننا العميق بقوميتنا وانتصارنا ..

وعشت على انتظار ابن عمي .. واخباره التي انقطعت ..

كنت أعيش معه كل ليلة .. في الساعة العاشرة ..

في مكاني شاردة .. واجمة في الأثير .. في الفضاء .. في ذلك المكان على الحدود .. عند حبيبي اتلمس خاتمه ، واستمد منه شجاعة وصبراً ..

ورفرفت الفرحة في انحاء جوانحي بانتهاء الحرب ..

انتهت الحرب .. وصمد العرب .. وانسحب المعتدون ..

واخذت انتظر عودة ابن عمي على احرّ من الجمر ..

وفي يوم ..

عدت من الجامعة وانا اشعر بقلق شامل لا ادري له سبباً ! ..

دخلت البيت .. ورايت الوجوم يسود الوجوه ! .. وبينهم ضابط في يديه رزمة أوراق زرقاء ! ..

فانعقد لساني .. ونظرت اليهم متسائلة ..

حينها جاءني الرد في نشيج خافت من امي ..

وعلا صوتي :

ـ ماذا جرى ؟ .. اين ابن عمي ؟ ..

امتدت يد ذلك الرجل الغريب تناولني الأوراق التي كانت معه .

وقال :

ـ تشجعي يا آنسة سهام.. انني اعرفك كما عرفك ابن عمك..

ودارت الدنيا بي ..

ثم اعقب :

ـ كان صديقي .. وكان يتكلم عنك طيلة الوقت .. ويبثك اشواقه وحبه في تلك الوريقات ..

كنت ابقى معه ساهراً في اسرتنا حتى الساعة العاشرة إذ كان يقول :

ـ انني الآن معها .. مع روحها وقلبها .. احبها .. احبها ..

ثم اضاف الصديق :

وفي ليلة .. في الساعة العاشرة ..

فاجأتنا دورية يهودية بنيرانهم الغاشمة .. وذهب مع ثلة من الجنود يستطلع ..

ثم لم يعد ..

لم يعد يا آنسة .. وبقيت أوراقه تحت وسادته .. تنظر الي ، وتطلب مني أن آتيك بها .. لعل فيها شيئاً من العزاء لك ..

وغادرني ذلك الصديق .. وأنا ممدة أعانق الأرض .. جامدة ليس بي حياة مع وريقات فيها حب وذكرى ..

ومرت سنتان ..

وانا أعيش في غرفتي ساهمة .. شاردة ..

القاه مع الليل في الساعة العاشرة ..

انتظر دوماً عودته في شرفتي .. انتظر صوت أصابعه تدق بابي .. وتناديني :

ـ انا على السطح انتظرك .

* * *

في سواد عينيه شيء لم تستطع مقاومته ! . .

فيهما كل ما حرمت منه طوال تلك السنين المعدودة من عمرها . .!

فيهما وحدتها وضياعها . .

فيهما حب وحنان افتقدتهما كثيراً . .

كيف تهدىء تلك النبضات السريعة التي استيقظت مع نظراته؟ . .

نظراته الحلوة .. المعبرة .

كانت لا تعرف عنه سوى شكله .. ويقولون عنه انه شاب متهور ، قد منحته الأيام ثقة بجماله ، وسمرته الجذابة ، وطوله الفارغ .

وانسابت رجاء بين ذراعي زوجها مع انغام التانجو الحالمة .. ولاحقها بسوداوين جميلتين ..

وتجاهلتـــه ..

لكنها احست براحة عميقة تشمل اغوارها الغافية ..

لقد لمست الاهتمام بها كانثى من إنسان ما ! .. لا كما هي .. زوجة .. كقطعة من قطع الأثاث المفروض فيه ان يوضع في البيت ..

او كشيء يزّج به في حياة الرجل ..

لكنها كانت قانعة بهذا الحرمان حتى رات عينيه .. مصوبتين اليهـا ..

اتراه ظنها تراقص والدها للعشرين سنة التي تفرق عمريهما ؟ ..

أم هو من النوع العابث الجريء الذي يتخطى الحدود غير عابىء بما ينتظره ؟ ..

ومرّ ليلها مع تلك الثورة المصطرعة في اعماقها .. وعادت ..

عادت انسانة ثانية .. حائرة .. تتساءل وتفكر ..

– لمَ يهتم بي ؟ ..

راته يوماً في طريقها .. فاعترضها محيياً بجراة ..

وتجاهلته ايضاً ..

ثم سارت مع الشمس الغاربة التي وشحت الأفق بلون الوداع ..

وغابت رجاء في ثنايا الدروب .. وسمعت وقع قدمين وراءها .. فحثت الخطى .. وحثها مثلها .. وحاذاها .

ثم القى عليها تحية المساء ..

وتصاممت عن تحيته ..

فاصر الا يدعها اذا لم تبادله التحية ..

ردتها بصوت يشمله فروغ الصبر .. لتتخلص منه ! ..

ولم تمهلها الأيام حتى جمعتها به صدفة ..

كانت تصعد الـ « أوتوبيس » .. وفي يديها اضمومة ازهار ..

فإذا به قد جلس بجانبها .. وهو يلح في حمل الأزهار عنها .. لانه يخاف على يديها من الأشواك !! ..

وابتسمت ! هل في الكون من يخاف على يديها من الأشواك ؟

وهي التي اعتادت تحملها .. في وحدتها وحرمانها .. وقسوة زوجهـا ..

كان بارعاً في إقناعها بحبه .. وإعجابه .. وما ذنبه ان كانت متزوجة !

لقد احبها لانه احبها فقط ! ..

وافهمته رجاء انها متزوجة .. إذ لا مجال للعبث معها ..

كانت كلماتها تذوب امام رقته .. واهتمامه بها ..

لم تدر باية قوة سحرية استطاع ان ينتزع منها ارقام هاتفها .. انتزاعاً ..

ثم غادرها بعد ان حدد الساعة العاشرة للقائهما كل يوم بين الأسلاك .

عادت رجاء الى بيتها خائفة .. من المجهول ! .. من الايام ! .. من نفسها ! .. ومن الحب ! ..

إذ عاودها خيال فتاة في ثوب العرس الأبيض .. ويدها في يد رجل يكبرها بعشرين سنة ..

كان طبيباً ناجحاً .. واسع الثراء ..

كانت لا تدري إلا انها سارت في الدرب الذي كتب لكل فتاة ان تسير فيه ..

وولجت باب الزوجية المفروض ..

ومرت الايام وهي تقنع نفسها بانها سعيدة ..

لكنها كانت في حرمان ووحشة ! ..

زوجها يحبها .. لكنه حب حسب طريقته الجافة ! ..

ثم جاءتها « ريمة » ابنتها الحلوة . التي عوّضتها عمّا قاسته من ليالي الوحدة القاتلة . حيث تقضي لياليها في انتظار زوجها المشغول دائماً في مرضاه ومستشفاه ! ..

وهي ؟ ! ..

اليست انثى لها عاطفة يجب ان تشبعها ؟ ..

ان تتزوّد من قلبها ؟ .. واين قلبها ؟ ..

إنها لم تحس به يوماً يرتعش بين يدي زوجها !..

وهل حصلت على يديه تضمّانها ؟ ..

انها زوجة .. كشيء مفروغ منه ان يضاف الى البيت ليكون كاملاً ..

مزق رنين الهاتف صمتها في الساعة العاشرة ..

واشتد معه وجيب قلبها ..

إنه هو ! ..

وصوته جاءها حانياً .. عطوفاً .. يسكب في اذنيها نهاية حرمان ..

ـ انا وحيد يا رجاء .. صباح الخير ..

اشتدت ضربات قلبها .. رجاء ؟ .. كيف عرف اسمها ..

وتكلما .. تكلما كثيراً ..

كانت إجاباتها تصاحب رعشات اخذت تغزو جوانحها ، وتحيلها الى انثى تتفتح للحياة بعد كبت دام طويلاً .. وطويلاً ..

لم تدر رجاء ما مرّ عليها من الزمن وهو يكلمها ..

كل ما تدريه انها باتت اسيرة الساعة العاشرة ..

إذ تمنت ان يقف سير الزمان .. ويقف معه عقرب الساعة .. وتبقى ايامها .. ساعاتها .. في العاشرة فقط ..

لتسمع صوته .. تترنم بحبه .. بحنانه الذي شملها بعد ان كانت غافية ..

وهو يبثها الشوق ويمنيها بالأحلام الدافئة ..

وتكررت لقاءاتهما عبر الأسلاك ..

وفي تمام الساعة العاشرة .. من كل يوم ..

كم وكم حمل لها رنين الهاتف بعض المقاطع من اغنيات كانت تذكره معها .. فكانهما كانا على اتفاق في كل شيء .. ويردد تلك

المقاطع في اذنيها بصورة عفوية شاعرية مع من يغني بصوته الحالم الحنـون ..

ثم جاءها يوم ضعفت فيه مقاومتها لما يسمونه « العقل » .. واتصلت به ! ..

وكان اتصالهما في الليل ..

في تلك الامسيات التي اعتادت أن تمضيها وحيدة ..

إذ حننت اليه مع انسياب ضوء القمر عبر نافذتها .. ومـع روعة سكون الليل ..

عانقت يدها سماعة الهاتف .. حين شاء القدر ان يجيبها هو ..

ـ رجاء ؟! ما بك ؟ كيف حنوت ؟ .. كم تمنيت ان اسمع صوتك مع همس الظلام ..

ـ انني وحيدة يا وحيد .. والدقائق تمرّ عليّ بطيئـة .. كئيبة .. انني اكاد اختنق .. فما الذي فعلته بي ؟ قل لي بربك مـا فعلت بي ؟ لمَ لمَ تدعني لحيـاتي ؟ .. لمَ ايقظتني ؟ .. لمَ عذبتني ؟ .. وكان الصوت الآخر ينساب في سمعها مسكراً .. عذباً .. يتجاوب مع حنينها واضطرابها .. تتفكك لسماعه اوصالها .. ويحن له كيانها ..

واتى اليها ..

اتى الى بيتها .. يزيّن وحدتها .. وينهي حرمانها ..

اتى ليضمها الى صدره .. ويدس وجهه بين ثنايا شعرها .. وقد غابت بين يديه عن الوجود .

وعاد بعدما مرت عليهما معاً ساعات هانئة ..

ارتمت رجاء على فراشها تبكي ..

ما أسعدها ! وما اشقاها ! ..

لو كانت له .. وليست لسواه .. اما الآن فإلى اين تسير ؟ وفي اية هاوية تتردى ؟ ..

وبرزت امامها صورة ابنتها ..

فهل تسعد يا ترى وتحب وتتزوج ؟ .. أم تتزوج وتحب كأمها ؟

ستعلمها الا تكون طيّعة صاغرة لرغبة احد ..

ستعلمها ان من حقها الا تتزوج الا من تحس انها لا شيء بدونه .. ولا حياة لها الا معه ..

ومرت بها الشهور ..

مرت في حب وانتظار .. بدون امل ..

كأنها مسلوبة الارادة والتفكير .. لترى الحقيقة ، وتناقش نفسها الى اين تسير ؟ ..

وعادت يوماً مع زهرة زنبق قدّمها اليها .. وكانا معاً في مكان قصي ..

كان في عينيه حب وهو يتأملها .. وفي عينيها عبادة وهي تحاول ان تختزن سعادتها من تلك الدقائق التي تجمعهما ..

ولمست الخوف في عينيه .. خوف عليها لانه لمس اندفاعها وصدق حبها .. وإخلاصها .

خوف عليها لانه احسّ في عينيها اتقاداً ينبذ كل التقاليد والقيم ..

وضمتها الى صدره شفوقاً عطوفاً ..

وتوسلت اليه الا يغيب عنها .. لأنها تخاف فقدانه ..

ثم امتدت يدها تداعب منديلاً في جيب سترته ..

طلبته منه للذكرى ! ..

كان قلبها كان يتنبأ لها بفراق مديد ..

وعادت مع زهرته ومنديله ! ..

إنه منديله !

قطعة منه .. فيه عبق لمساته .. فيه لفح انفاسه .. الم يعش في ثنايا صدره ؟

ويتنسم عبيره .. فكأنه إذاً يعيش معها في تلك الليالي ولو لم تره ! ..

واتاها الصيف بأحداث قاسية ..

لقد فوجئت بمرض زوجها ..

واشتدت وطأته حين اخذت الحمى تعذّبه .. والخطر يحيق به .. والهذيان اخذ يلازمه .. إذ كان يذكر في هذيانه اي شيء .. إلا هي ..

كانها قطعة جامدة كذاك السرير الممدّد عليه ..

وبعد مرور أسابيع على مرضه .. خطفه منها الموت ..

واصبحت وحيدة !..

أواه !! ..

كم تحمل هذه الكلمة بين ثناياها من فراغ قاتل ..

وعادت رجاء الى بيت اهلها مع ابنتها ..

ومرت عليها الأيام في عذاب .. وشقاء .. والزمان ساخر !..

لا ينعم عليها بشيء من الاستقرار والراحة ..

وصدق ظنها .. حين رات الأيام تمر ووحيد بعيد ..

غاب عنها فجاة الى فتاة اخرى ! .. كانت الشفاه تتهامس عنه ، وعن فتاته في الدرب .. في المجتمعات .. اينما اتجهت ..

اخشي عليها من حبها .. كما كان يقول ؟ ..

وما اسخف ما ادعى ! ..

كان في يوم مضى يخاف على يديها من الاشواك .. فكيف به وقد خلفها منهوكة .. محطمة ..

* * *

كانت رجاء مع اخيها وجماعة من اصدقائهما حين راته ..

إنه « وحيد » .. في نفس المكان .. وهو ينظر اليها .. كما نظر اليها في الماضي ..

حين كانت مرة تراقص زوجها ..

راته بجانبه فتاة تنظر اليه بعبادة .. وولع ..

وهو ؟ ! ..

يدور براسه يبحث عمن هي طعمه اليوم ! ..

ورآها ..

ورات عينين تحدقان فيها ..

لكنها تجاهلته .. وادارت وجهها عن ذكرى ماضية ..

عن حفنة من الأيام كانت مخدوعة بها ..

لن تعاود الكرّة .. ولن تثق في إنسان ما ، بعد غدر « وحيد ».

وقامت رجاء تغادر المكان وهي تغمغم :

مسكينة تلك الفتاة التي بجانبه .. إني أرثي لها .. وأرى فيها مرآة نفسي المعذبة ..

* * *

الفهرس

	صفحة
ذاكر يا ترى	٥
يا ليل	٦٥
هذا عامك العاشر	٧٣
تراه يحن يوماً	٨١
وريقات في الخريف	٩٣
ذكريات منثورة	١٠٣
بدون غد	١١٣
ضائعة	١٢١
قدر	١٢٩
عبير ذكرى	١٣٩
ناقمة	١٤٧
حنين	١٥٧
انتظار	١٧١
لن انسى	١٨١

المطبعة الهاشمية بدمشق

منشورات دار الثقافة بدمشق

الثمن : ليرتان سوريتان

893.7N179
P5

09944575

FEB 8 1965

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58876898
893.7N179 P5 Dhakir ya tara,